

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة في التفسير الموضوعي

مقرر سنة ثالثة كتاب سنة، مقياس التفسير الموضوعي، المحاضرة (1 - 2)، الدكتور/ مصباح موساوي

الموضوع الأول: مقدمة في التفسير الموضوعي

المبحث الأول: مفهوم التفسير الموضوعي

يتكون مصطلح (التفسير الموضوعي) من جزأين ركبا تركيبياً وصفيًا، فنقوم بتعريف الجزأين ابتداءً ثم نعرف المصطلح المركب منهما.

المطلب الأول: تعريف التفسير

فالتفسير لغةً:

قال الراغب الأصفهاني: من (الْفَسْر) وهو: الكشف والبيان والإيضاح، وهو إظهار المعنى المعقول، والتفسير مبالغة من الفسر. (1)

ومنه قوله تعالى: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) (2).

أي: أحسن توضيحاً وبياناً للمطلوب.

ويقال أيضاً: أسفر الصبح إذا بان ووضح، ومنه سفرت المرأة سفوراً.

والتفسير: هو الإيضاح والتبيين، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال في القاموس: الفسر: الإبانة وكشف المغطى. (3)

وقال في لسان العرب: الفسر: البيان، فسّر الشيء يفسره - بالكسر ويفسره - بالضم فسراً، وفسره أبانه، والتفسير مثله، ثم قال: الفسر كشف المغطى، والتفسير المراد عن اللفظ المشكل. (4)

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يُستعمل لغة في الكشف الحسي، وفي الكشف عن المعاني المعقولة، واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأول.

التفسير في الاصطلاح: هو علم يكشف به عن معاني آيات القرآن وبيان مراد الله تعالى منها حسب الطاقة البشرية.

وهو علم يُفهم به كتاب الله عز وجل، وذلك ببيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه.

وعرفه الزرقاني: علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز، من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالألفاظ، والمتعلقة بالأحكام. (5)

وعرفه كذلك: علم يبحث فيه عن أحوال القرآن العزيز من حيث دلالاته على مراده بحسب الطاقة البشرية. (6)

وقد عرفه أبو حيان في البحر المحيط بأنه: علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب، وتتمت لذلك. (7) ثم خَرَجَ التعريف فقال:

فقولنا: علم: هو جنس يشمل سائر العلوم.

وقولنا: (يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن): هذا هو علم القراءات.

وقولنا: (ومدلولاتها) أي: مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذي يُحتاج إليه في هذا العلم.

وقولنا: (وأحكامها الإفرادية والتركيبية): هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع.

وقولنا: (ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب): يشمل ما دلالاته عليه بالحقيقة، وما دلالاته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضى بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يُحمل على الظاهر وهو المجاز.

وقولنا: (وتتمت لذلك): هو معرفة النَّسخ وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم في القرآن، ونحو ذلك.

- وعرفه الزركشي بأنه: علم يُفهم به كتاب الله المُنزَّل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه.

- وعرفه بعضهم بأنه: علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالاته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية.

1 - المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني، ص: 571.

2 - الفرقان: 33.

3 - القاموس المحيط، للفيروزآبادي، 110/2.

4 - لسان العرب، لابن منظور، 361/6.

5 - انظر مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، 471/1.

6 - انظر مناهل العرفان، الزرقاني، 4/2.

7 - القاموس المحيط، 13/1 - 14.

والناظر لأول وهلة في هذين التعريفين الأخيرين، يظن أن علم القراءات وعلم الرسم لا يدخلان في علم التفسير، والحق أنهما داخلان فيه، وذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات، كقراءة: {وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} - بضم الميم وإسكان اللام، وكقراءة {حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ} - بالتسكين، فإن معناها مغيرة لقراءة مَنْ قَرَأَ: "يَطْهَرْنَ" - بالتشديد، كما أن المعنى يختلف أيضاً باختلاف الرسم القرآني في المصحف، فمثلاً قوله تعالى: {أَمَّنْ يَمِثِّي سَوِيًّا} بوصل "أَمَّنْ"، يغاير في المعنى: {أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} - بفصلها، فإن المفصلة تفيد معنى "بل" دون الموصولة. وعرفه بعضهم بأنه: علم نزول الآيات، وشؤونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها، ومُحكَمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومُطلقها ومُقيدها، ومُجمَلها ومُفسرُها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها.(1)

وهذه التعاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التفسير؛ علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد.

فالتفسير: (يشمل علم القراءات، وعلم اللغة، وعلم الإعراب، وعلم البيان والبدیع، وعلم التصريف، وعلم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ومكيتها ومدنيها، ومُحكَمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومُطلقها ومُقيدها، ومُجمَلها ومُفسرُها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها..).

المطلب الثاني: تعريف التفسير الموضوعي

بعد أن عرفنا معنى التفسير لغة واصطلاحاً، نعرف الموضوع لغة واصطلاحاً، ثم نعرف المركب الوصفي المتمثل في تعريف التفسير الموضوعي:

والموضوع لغةً: الموضوع: المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه.(2)

وفي كتب اللغة إشارة إلى إطلاق (الموضوع) على القضية الواحدة:

يقول الجوهري رحمه الله: (... والضعة شجرة من الحمض، يقال ناقة واضعة للتي ترعاها، قال أبو زيد: إن رعت الحمض حول الماء ولم تبحر، قيل: وضعت تضع وضعية فهي واضعة، قال: وكذلك وضعتها أنا، وهي موضوعة، يتعدى ولا يتعدى(3).

وقال الفيروزآبادي: (والإبل وضعية رعت الإبل حول الماء ولم تبحر، ووضعتها: ألزمتها المرعى فهي موضوعة(4). **فالموضوع:** من الوضع؛ وهو جعل الشيء في مكان ما، سواء أكان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان، وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين لا يتجاوز به إلى غيره حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي أراده.

فيكون وصف التفسير بـ (الموضوعي) ملحوظاً فيه هذا المعنى، لأن المفسر يثبت كل آية في موضعها من المعنى للقضية التي يبحثها.

وعليه **فمعنى موضوع:** بمعنى الشيء الذي له صفة معينة، وألزم مكاناً معيناً، لا يبرحه إلى غيره، وهذا المعنى يناسب تقييد التفسير بالموضوعي، لأنه يلزم المفسر الارتباط بمعنى معين، وصفة معينة، لا يتعداها إلى غيرها حتى يفرغ من تفسير الموضوع الذي التزم به.

تعريف مصطلح التفسير الموضوعي:

يجب أن نعلم أن التفسير الموضوعي له ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التفسير الموضوعي للموضوع القرآني. النوع الثاني: التفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

النوع الثالث: التفسير الموضوعي للفتحة القرآنية.

1 - تعريف النوع الأول: التفسير الموضوعي للموضوع القرآني: قال عبد الجليل عبد الرحيم: (الكشف الكلي عن مراد الله عز وجل في قضية قرآنية بحسب الطاقة البشرية).

فالتفسير الموضوعي للموضوع القرآني: هو الذي يلتزم فيه المفسر (موضوعاً)، لا موضعاً بعينه، فيجمع الآيات الكريمة من مواضعها في سور القرآن، ويقيم منها بناء متكاملًا يقرر موقف القرآن من قضية ما.

1 - الاتقان في علوم القرآن، السيوط، 174/2.

2 - انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار سعيد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، ص: 15.

وانظر زهير عوض، دراسات في التفسير الموضوعي، مطابع الفرزدق، ص: 7.

3 - الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، 1300/3، باب العين، فصل الواو.

4 - القاموس المحيط، 94/3، باب العين، فصل الواو.

وهو: (المنهج الذي يتخذه المفسر سبيلا للكشف عن مراد الله من خلال المواضيع التي يطرحها والقضايا التي يعالجها، توضيحا لهداية القرآن، وتجليه لوجوه إعجازه⁽¹⁾). وقد عرّف عدة تعريفات منها:

- 1 - هو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية.
- 2 - هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحددة معنى أو غاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع.
- 3 - تعريف النوع الثاني: التفسير الموضوعي لسورة القرآنية:
علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر.⁽²⁾

المبحث الثاني: نشأة علم التفسير الموضوعي، وتطوره عبر العصور

التفسير الموضوعي قديم النشأة، وقد بدأ يسيراً، ثم نما وتطور على مر العصور، مثل غيره من العلوم والفنون، حتى انتهى إلى إصطلاح محدد الأوصاف والمعالم، ويمكننا إجمال ذلك في المراحل التالية:

المطلب الأول: نشأة التفسير الموضوعي في عصر الرسول ﷺ

وهو عهد البداية للتفسير العام، والموضوعي على سواء، وكان ذلك عن طريق تفسير القرآن بالقرآن: إن لبنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأولى كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة النبي ﷺ، إن البذرة الأولى في هذا النوع من التفسير قديمة، وذلك أن كل ما فسّر من القرآن بالقرآن - وهو معروف باسم التفسير بالمأثور - هو من التفسير الموضوعي، ويمثل في نفس الوقت بدايات قديمة لهذا المنهج. فالمصطلح الذي أطلقه العلماء ما يسمى تفسير القرآن بالقرآن، وهو تتبع الآيات التي تناولت قضية ما والجمع بين دلالاتها، وتفسير بعضها لبعض، كان معروفاً في الصدر الأول من الإسلام، ونجد في القرآن الكريم آيات تحيل إلى آيات أخرى في موضوعها، ولا تفهم إحداها إلا بالأخرى، وهذه دلالات وإشارات مبكرة، تقرر أهمية النظر الموضوعي في الآيات الكريمة، فقد لجأ رسول الله ﷺ إليه عندما سئل عن بعض الآيات الكريمة:

- روى البخاري وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ

بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ، الأنعام: 82.

شق على الناس، فقالوا: يارسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟، قال: ليس ذلك، إنما هو: الشرك، ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ، يَبْنَئَ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان: 13.⁽³⁾ إن القرآن الكريم يوجهنا ويعلمنا أن هناك آيات تحيل إلى آيات أخرى في موضوعها، ولا تفهم إحداها إلا بالأخرى، ولا ريب أن تفسير القرآن بالقرآن هو لب التفسير الموضوعي وأعلى ثمراته، وجميع الآيات التي تناولت قضية واحدة والجمع بين دلالاتها والتنسيق بينها كان أبرز ألوان التفسير التي كان النبي ﷺ يربي أصحابه عليها.

فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ فسر مفاتيح الغيب في قوله تعالى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ)⁽⁴⁾، فقال: مفاتيح الغيب خمسة: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)⁽⁵⁾.

فهذه إشارات نبوية واضحة بأن اللفظ الواحد قد تكون له معان متعددة في القرآن الكريم، وأن جمع الآيات يفيدنا في تحديد المعنى المراد في كل مقام، كما أفادنا في أن معنى: (الظلم) هنا هو (الشرك). وبما أثر وصح عن رسول الله ﷺ في هذا المجال يمكن لنا أن نقول: إن هذا العلم نشأ ووضعت بذوره الأولى على يديه وفي عهده ﷺ.

1 - انظر منهجية البحث، الدغامين زياد خليل محمد، نقلا عن عبد الجليل عبد الرحيم، ص: 13.

2 - وهذا تعريف مصطفى مسلم، في مباحث التفسير الموضوعي، ص: 16.

3 - أخرجه البخاري، التفسير، 1262/3، رقم: 3246.

4 - الأنعام: 59.

5 - أخرجه البخاري، كتاب التفسير، 20/6، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، 80/1.

ومن أمثلة التقييد، الدال على التتبع الشامل لأي القرآن، ووضع قاعدة لذلك؛ ما رواه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (كل حرف يذكر من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة).⁽¹⁾ فهذا إشارة إلى اتحاد معنى اللفظ في مواضعه من القرآن الكريم، تارة أخرى. ومن الأمثلة من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم وهي تعد من القواعد التفسيرية التي وردت في السنة، بيان معنى اللفظ، عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ويل: واد في جهنم، يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره، والصعود: جبل من نار، يصعد فيه سبعين خريفاً، يهوي به كذلك فيه أبداً).⁽²⁾

المطلب الثاني: التفسير الموضوعي في عهد الصحابة رضي الله عنهم

وقد سار الصحابة رضي الله عنهم على هذا النهج إذ كانوا يجمعون الآيات القرآنية التي يُظن بها بعض التعارض أو بعض الأمور التي يشق عليهم فهمها وتختلف عليهم.

كما روى البخاري قال: وقال المنهال:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: إِنِّي أَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَسْئَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ، قَالَ: {فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} [المؤمنون: 101]، {وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصافات: 27] {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: 42]، {وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: 23]، فَقَدْ كَتَمُوا فِي هَذِهِ الْآيَةِ؟

وَقَالَ: {أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا} [النازعات: 27] إِلَى قَوْلِهِ: {دَحَاهَا} [النازعات: 30] فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ خَلْقِ الْأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: {أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: 9] إِلَى قَوْلِهِ: {طَائِعِينَ} [فصلت: 11] فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ؟ وَقَالَ: {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: 96]، {عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: 56]، {سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58] فَكَأَنَّهُ كَانَ ثُمَّ مَضَى؟

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: {فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ} [المؤمنون: 101]: " فِي النَّفْخَةِ الْأُولَى، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ: {فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} فَلَا أَنْسَابَ [ص: 128] بَيْنَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ، ثُمَّ فِي النَّفْخَةِ الْآخِرَةِ، {وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ} [الصافات: 27] وَأَمَّا قَوْلُهُ: {مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: 23]، {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء: 42]، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: تَعَالَوْا نَقُولُ لَمْ نَكُنْ مُشْرِكِينَ، فَخَتِمَ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، فَتَنَطَّقُ أَيْدِيهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ عُرِفَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُكْتَمُ حَدِيثًا، وَعِنْدَهُ: {يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [البقرة: 105] الْآيَةَ.

وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ، وَدَحَوْهَا: أَنْ أُخْرِجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالْجَمَالَ وَالْأَكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {دَحَاهَا} [النازعات: 30].

وَقَوْلُهُ: {خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: 9]. فَجُعِلَتِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، وَخُلِقَتِ السَّمَوَاتُ فِي يَوْمَيْنِ، {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: 96] سَمَّى نَفْسَهُ ذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ، أَي لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ. فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَرُدْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابَ بِهِ الَّذِي أَرَادَ، فَلَا يَخْتَلِفُ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ، فَإِنَّ كَلَامًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ " (3).

المطلب الثالث: الأصول التاريخية والدراسات التأسيسية للتفسير الموضوعي من عصر التابعين وما بعدهم

تمهيد - تطور علم التفسير الموضوعي في عصور ما بعد الصحابة:

تجد بعد عصر الصحابة إشارات إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم تظهر في كثير من صفحات الكتب المطولة، التي عنيت بتفسير القرآن الكريم، ولكن الإشارات تلك تأتي بشكل ثانوي، وفي شكل موجز في كثير من الأحيان، ومنها ندرك أن نشأة هذا النوع من التفسير قديمة بهذه البدايات، التي لم يقصد معها أن يكون لها طابع المنهج المستقل، وهي تثبت لنا أن هذا النوع من التفسير، ليس بجديد على بساط الدراسات القرآنية، وإنما الجديد هو اهتمام الباحثين به على هذا النحو الذي جعله يأخذ من المعالم والملاحم، ما يوضحه ويميزه عن مناهج التفسير الأخرى، بل يبرزه بينها كمنهج فريد مستقل، باعتبار التسلسل التاريخي كذلك، وإليك هذا السرد التاريخي بداية من القرن الثاني للهجرة:

بدأت حركة التأليف في التفسير والتفسير الموضوعي والدراسات القرآنية وعلوم اللغة بدءاً من القرن الثاني الهجري، حين كتب:

1 - أخرجه أحمد في مسنده، 75/3، رقم: 11729، وابن حبان في صحيحه، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، 7/2، رقم: 309، وأبو يعلى في مسنده، 522/2، رقم: 1379، وانظر هذه الأحاديث وغيرها في خاتمة الإتيان في علوم القرآن، 191/2.

2 - أخرجه أحمد في مسنده، 75 / 3، رقم: 11730.

3 - أخرجه البخاري، التفسير، باب قوله: ونفخ في الصور، 127/6.

قتادة بن دعامة (118هـ) كتابه (الناسخ والمنسوخ)، أورد جميع الآيات التي قيل بنسخها، وذكر الناس لها من القرآن الكريم.

ومنهم من كتب في اتجاه آخر ذي الطابع اللغوي الذي يعد أساساً للتفسير الموضوعي، فقد قام بنوع من التتبع الموضوعي، وإن كان بصورة مجملة إذا ما قارناه بتفصيل الطبري، ومثال ذلك ما كتبه:

مقاتل بن سليمان البلخي (150هـ) في (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم)⁽¹⁾، ووصلنا أقدم تفسير مقاتل (تفسير الخمسمائة آية من القرآن في الأمر والنهي والحلال والحرام)، ويحيى بن سلام (200هـ) في (التصارييف)؛ وهو تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه على طريقة كتاب الأشباه والنظائر، وألف الشافعي (205هـ) (أحكام القرآن)⁽²⁾، ثم تلاه أبو عبيدة معمر بن المثنى (210هـ) (مجاز القرآن)، ومنها ما ألف ويحيى دراسات تفسيرية لها جوانب لغوية جمعت بين الآيات التي يربطها رابط واحد، أو تدخل تحت عنوان واحد مثل ما ألفه أبو القاسم بن سلام (224هـ) في كتابه (الناسخ والمنسوخ) أيضاً، وألف الإمام علي بن المديني (234هـ) شيخ البخاري، كتابه في (أسباب النزول)، أن يتحرى جميع الآيات التي نزلت على أسباب خاصة، فذكرها وذكر أسبابها، وبين المراد منها.

ومنهم من المعتزلة من هضم ما في القرآن من مواضع بحكم أن النص القرآني كان مدار احتجاجهم ودفاعهم، مكنتهم ثقافتهم الفلسفية المنطقية من النظرة الشاملة والتقصي الجزئي لأي القرآن وموضوعاته، كما ذكره الجويني في مناهج التفسير، ومثال ذلك:

ما كتبه الجاحظ (255هـ) في (إعجاز القرآن الكريم)، وموضوع (النار في القرآن)، و (الكلب في القرآن من مديح أو ذم)، و (العذاب بالجراد والقمل والماء في القرآن)، و (الملائكة في القرآن)، ويعد أول من استخدم مصطلح الكناية في القرآن، ففي قوله تعالى: (وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا)، قال: إنها كناية عن الفروج، وهي في المصطلح اللغوي (المحسن اللفظي)، والجاحظ يدرك هنا تحول المحسن اللفظي إلى لفظ شائع يستدعي ما يتضمنه من معنى بسرعة، مما يفضي إلى تحسينه بلفظ آخر.

وألف الطبري (310هـ) كتابه الشهير (جامع البيان في تأويل القرآن) يستعين على فهم المعنى في بعض الآيات بتتبع كل ما يتصل به من المعاني في بقية القرآن، ثم يدرس الجميع دراسة شاملة يتضح فيها كل ما يتصل به من المعاني في بقية القرآن، ثم يدرس الجميع دراسة شاملة يتضح فيها الجزء بالكل أو تتضح فيها الأجزاء كلها باكتشاف ما بينها من علاقات⁽³⁾.

وألف السجستاني (330هـ) كتابه (نزهة القلوب في غريب القرآن)، كما ألف أبو جعفر النحاس (338هـ) (الناسخ والمنسوخ)، وألف الجصاص الحنفي (370هـ) في (أحكام القرآن)، ويعد من التفسير الفقهي وهو من ألوان التفسير الذي ظهر مبكراً بعد الشافعي، والرماني (386هـ) في (إعجاز القرآن الكريم)، والخطابي (388هـ) في (إعجاز القرآن الكريم)، والباقلاني (403هـ) في (إعجاز القرآن الكريم)، وكتب الشريف الرضي (406هـ) في (مجاز القرآن الكريم) و (المجازات النبوية)، وأبو الحسن الواحدي (468هـ) في (إعجاز القرآن)، وألف الجرجاني أبو العباس أحمد بن محمد (471هـ) في (إعجاز القرآن)، وألف الدامغاني (478هـ) (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم)، والأشباه والنظائر: وهو اتجاه نحاه بعض العلماء في تتبع اللفظة القرآنية، ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة، مثال ذلك: كلمة (خير) وردت في القرآن على ثمانية أوجه حسبما ذكره الدامغاني في كتابه (إصلاح الوجوه والنظائر)، وهي: المال: كقوله (إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) البقرة 180، والإيمان كقوله: (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ) الأنفال 23، والإسلام كقوله: (مَنَّاغَ لِلْخَيْرِ) القلم 2، وبمعنى أفضل كقوله: (وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) المؤمنون 109، والعافية كقوله: (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) الأنعام 17، والأجر كقوله: (لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ) الحج 36، والطعام كقوله: (فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ) القصص 24، وبمعنى الظفر والغنيمة والطعن في القتال كقوله: (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا) الأحزاب 25 وهذا كما ترى لون من التفسير الموضوعي، وهو أول وسيلة يلجأ إليها الباحثون في البحث عن موضوعات القرآن حيث يجمعون ألفاظ ذلك الموضوع من سور القرآن ثم يتعرفون على دلالة اللفظ في أماكن وروده.

1 - وهو الاتجاه اللغوي وذلك بتتبع اللفظة القرآنية ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة ويذكر فيها الكلمات التي أتحدث في اللفظ واختلفت دلالاتها حسب السياق في الآيات الكريمة.

2 - فقد جمع الفقهاء هذه الآيات ذات الصلة بموضوع واحد في كتبهم الفقهية فجمعوا ما يتعلق بالوضوء والتميم تحت كتاب الطهارة واستنبطوا منها الأحكام الخاصة بها، كما جمعوا ما ورد في الصلاة وقيامها وركوعها والقراءة فيها تحت كتاب الصلاة، وما يتعلق بالصدقات وجوبا ومصارف وأنواع المال والتي تخرج الصدقة منها تحت كتاب الزكاة، وهكذا في سائر أبواب الفقه من العبادات والمعاملات والفرائض والسير. وكل ذلك لون من ألوان التفسير الموضوعي في خطواته الأولى.

3 - تفسير القرآن بالقرآن، ص: 75، جعفر عبد المقصود عبد الهادي.

وألف الحاكم الحسكاني الحنفي (490هـ) كتابه (شواهد التنزيل)، وقد تناول التفسير الموضوعي في أصول العقيدة وفروعها مستدل بكثافة الآيات التي يحتج بها على موضوع واحد في رواية واحدة، وألف الراغب الأصفهاني (502هـ) كتابه العظيم (مفردات القرآن)، جمع فيه المفردات على حروف الهجاء، وبيّن معناها في اللغة وفي استعمال القرآن، حيث تتبع مادة الكلمة القرآنية وبيّن دلالاتها في مختلف الآيات، وفي دراسة الجانب اللغوي للكلمات الغريبة التي تتعدد دلالاتها حسب الاستعمال.

وألف إلكيا الهراسي الشافعي (504هـ) كتابه (أحكام القرآن)، وكتب الإمام الغزالي (505هـ) كتابه (جواهر القرآن)، بحث في مقاصد القرآن الكلية، وهو أقرب إلى نسق التفسير الموضوعي، إذ عمل فيه على تحليل جوهر القرآن ومقصده الأقصى، وهو دعوة العباد إلى الجبار الأعلى رب السموات والأرض وما بينهما، وقد رده إلى عنصرين أساسيين يتصل أحدهما بالمعرفة، ويتصل الآخر بالسلوك، وانتهى إلى أن حصر في القرآن من النوع الأول سبعمائة وثلاثاً وستين آية، كما حصر من النوع الثاني سبعمائة وإحدى وأربعين آية، فمجموع هذه الآيات يربو على ألف وخمسمائة آية، تمثل أقل من ربع القرآن بقليل، وما عدا ذلك لا يعالج في رأيه سوى مسائل تكميلية، على ما قال (1).

كما ألف الماوردي (540هـ) كتابه (أمثال القرآن)، وألف ابن العربي (543هـ) كتاب (أحكام القرآن) و(المناسخ والمنتسوخ) و(القانون في تفسير القرآن العزيز) و(أنوار الفجر في تفسير القرآن) ألفه في عشرين سنة، وفي كتابه (أحكام القرآن): يتعرض لسور القرآن كلها، ولا يتعرض إلا لما فيها من آيات الأحكام فقط، حيث يذكر السورة ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام، ثم يأخذ في شرحها آية آية، قائلاً: الآية الأولى وفيها خمسة مسائل (مثلاً) وهكذا، هذا ويعتبر كتابه هذا مرجعاً مهماً في التفسير الفقهي عند المالكية.

وكتب ابن رشد (595هـ) كتابه (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة) قام باستقراء آيات القرآن في عدد من القضايا الكلامية التي اختلفت فيها الآراء وتعددت بشأنها المذاهب، معتبراً أن اعتماد المنهج الاستقرائي لآيات القرآن حاسم لكثير من الاختلافات التي نشأت بين المتكلمين، وقد وجد ابن رشد أن الآيات التي جاءت في هذا المعنى وجدت على ثلاثة أنواع: إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية، وإما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع، وإما آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً، وراح يسرد أمثلة على الآيات من كل نوع من هذه الأنواع الثلاثة، وكان ابن رشد ينوي تصنيف كتاب مستقل في دليل العناية كما جاء في القرآن الكريم (2).

وألف ابن الجوزي (597هـ)، كتابه (نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر)، وألف ابن أبي الإصبع (654هـ) كتابه (بديع القرآن)، و(مجاز القرآن) للعز بن عبد السلام (660هـ)، وألف القرطبي (671هـ) تفسيره (الجامع لأحكام القرآن).

وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية في لفظ: (السنة في القرآن الكريم)، يعد تفسيراً موضوعياً شمل أغلب منهجه الذي وضع له حديثاً، وقد خلص ابن تيمية في مقدمته التأصيلية لعلم التفسير إلى أن خير طرق التفسير هي أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في موضع بسط في موضع آخر، وما ذكر موجزاً جاء مفصلاً في أي أخرى، كما تجاوز ابن تيمية طريقة تفسير القرآن بالقرآن قليلاً حتى اقترب إلى حد ما من منهج التفسير الموضوعي، كما جاوز قصد تفسير آية من القرآن بأخرى إلى قصد الكشف عن مراد الله في قضية من القضايا، أو مفهوم من المفاهيم القرآنية، ومن تلك الدراسات؛ دراسته عن لفظ (السنة) في القرآن، فنلاحظ أن ابن تيمية قد استند إلى عدد من قواعد منهج التفسير الموضوعي وهي؛ استقراء الآيات القرآنية المتصلة بالمعنى المفسر ثم حصرها، وإدراك الأصل اللغوي للمفردات، واستخراج المشترك المعنوي بين مختلف الاستعمالات القرآنية للألفاظ، أو ما يمكن أن يسمى المصطلحات القرآنية، والدلالات العامة التي تستنبط من مجموع النصوص المستقراة (3).

ثم ألف ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية (751هـ) كتابه (أقسام القرآن) و(أمثال القرآن) و(التبيان في أقسام القرآن)، وقد جمع فيه الآيات التي أقسم الله تعالى فيها بذاته، أو بصفاته، أو بخلق من خلقه، وقد استطرده فيه استطرادات علمية نافعة، لكنها طغت على الجانب الموضوعي فيه، فابن القيم في دراسته للقسم قد حصر جميع مواضع القسم (المقسم به) و (المقسم عليه)، وعمل على مطابقة القسم للمقسم عليه، والإشارة إلى حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه في ذلك كله، كما أن ابن القيم فسر المعوذتين، والذكر في القرآن (الوابل الصيب من الكلم الطيب)، و(الجنة في القرآن)، بعنوان: (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)، وألف الزركشي (794هـ) كتابه (البرهان في علوم القرآن)، يتحدث الزركشي فيه عن أسباب الكناية ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه، كقوله تعالى: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَأْنِيهَا

1 - انظر دستور الأخلاق في القرآن، محمد عبد الله دراز، تعريب عبد الصبور شاهين، ص: 5، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط8، 1991م.
2 - انظر الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، ابن رشد، تحقيق الجابري، ص: 118، 162، ط1، بيروت 1998م. و(انظر منهج التفسير الموضوعي، د/ سامر، ص: 98).
3 - انظر منهج التفسير الموضوعي دراسة نقدية، د سامر، ص: 83.

وَعَزَّيْنِي فِي الْخُطَابِ)، فكفى عن المرأة بالنعجة، كعادة العرب أنها تكني بها عن المرأة، كما يجعل تحسين اللفظ من أسباب الكناية، كما في قوله تعالى: (بيض مكنون)، فإن العرب كانت من عاداتهم الكناية عن حرائر النساء بالبيض⁽¹⁾، وألف أبو جعفر بن الزبير الأندلسي (807هـ) كتابه في علم المناسبات (البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن)، الذي يحتاجه المفسر في التفسير الموضوعي، وخاصة في التفسير الموضوعي لسور القرآن، وكتاب الفيروزآبادي (817هـ) **(بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)**، قام بتعريف سور القرآن وبيان محتوياتها والمواضيع التي عرضها لها، على الرغم من أنه قد اشترط في مقدمته تبيان المقصود من السورة وما تضمنته مجملاً، ويشبهه صنيع الفيروزآبادي، صنيع ابن تيمية في عرض مواضيع السورة في مقدمة تفسيره لها أو في خاتمتها، بالرغم من أنه لم يحدد الوحدة المعنوية النازمة للسورة، ولكنه اهتم بالسورة من حيث هي مجموعة مواضيع وقضايا لا أنها مجموعة آيات فحسب⁽²⁾، وألف ابن حجة الحموي (837هـ) كتابه (خزانة الأدب وغاية الأرب)، وكتابه (القاموس المحيط).

وألف البقاعي (885هـ) **(تناسب الآيات والسور)**، **(مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور)**، وقد انتقل إلى طور جديد في التفسير، وهو النظر في السورة ضمن تفسير القرآن، ذات علم مستقل مداره النظر الكلي في السورة وفق منهج وأصول خاصة، وقال عنه: علم يعرف منه مقاصد السور، وموضوعه آيات السور، أي كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها، كما ألف ابن العماد (887هـ) **(كشف السرائر في معنى الوجوه والأشياء والنظائر)**، كما ألف السيوطي (911هـ) كتابه **(الاتقان في علوم القرآن)** و(المزهر في علوم اللغة وأنواعها).

وفي العصر القرن الرابع للهجرة ألف محمد عزة دروزة (1305هـ) كتابه **(سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن)**، ومحمد صديق خان (1307هـ) **(نبيل المرام في تفسير آيات الأحكام)**، وألفت عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ كتابها **(التفسير البياني للقرآن الكريم)**، والدكتور عبد الله شحاتة في تفسير الآيات الكونية، كما ألف رشيد رضا كتابه في التفسير (المنار)، وألف سيد قطب تفسيره **(في ظلال القرآن)**، وهو أول من طبق منهج التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ثم خلفهم علماء كثر كتبوا على هذا النهج محتدين خطاهم في القصد إلى نوع من أنواع الخطاب القرآني يجمعون ما تفرق منه ويفردونه بالبحث والدرس، وألف محمد علي الصابوني، روائع البيان تفسير آيات الأحكام، ومناجى القطان، تفسير آيات الأحكام، ود. الشافعي عبد الرحمن السيد، قيس من التفسير الفقهي، د. كمال جودة، دراسات في تفسير بعض آيات الأحكام.

ومن الجدير بالذكر كذلك أن أحد المستشرقين الفرنسيين هو (جول لابول) وضع كتاباً بعنوان **(تفصيل آيات القرآن الكريم)**، ترجمه محمد فؤاد عبد الباقي، وضع (جول) لكتابه ثمانية عشر باباً، ثم حاول توزيع آيات القرآن الكريم على هذه الأبواب، وجعل تحت كل باب فروعا وقد بلغت عدة هذه الفروع حوال 350 فرعاً، وجمع تحت فرع الآيات التي تتعلق به.

أما الأبواب الرئيسة فهي:

- 1 - التاريخ. 2- محمد صلى الله عليه وسلم. 3- التبليغ. 4- بنو إسرائيل. 5- التوراة. 6- النصرى. 7- ما بعد الطبيعة. 8- التوحيد.
- 9- القرآن. 10- الدين. 11- العقائد. 12- العبادات. 13- الشريعة. 14- النظام الاجتماعي. 15- العلوم والفنون. 16- التجارة. 17- علم تهذيب الأخلاق. 18- النجاح.

المبحث الثالث: الفرق بين التفسير الموضوعي وبين مناهج التفسير الأخرى

المطلب الأول - التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي:

يعرف التفسير التحليلي بأنه ما يكشف عن مراد الله عز وجل من كلامه بحسب الطاقة البشرية، حسب ترتيب القرآن وتسلسل آياته التوقيفي، ويتجلى الفرق بينه وبين التفسير الموضوعي للقرآن في عدة نقاط، وحتى هذا الاختلاف في المنهج ليس اختلاف تباين وانفصال وتضاد، بل هو اختلاف تنوع وتعاضد وترادف، ذلك أن مجال البحث واحد وهو كلام الله، والغاية التي يهدف إليها المفسر واحدة أيضاً:

1- في التفسير التحليلي يلتزم المفسر بالترتيب التوقيفي للآيات والسور، كما هو في المصحف.

- في التفسير الموضوعي لا يلتزم بالترتيب، وإنما يلتزم بترتيب آخر تفرضه طبيعة الموضوع وبنيتة الفكرية، كما أنه ليس من الضرورة ترتيب آيات الموضوع بحسب ترتيب المصحف بعد استخراجها من سورها. وإنما يلتزم بترتيب آيات الموضوع المزمع دراسته حسب نزولها على النبي ﷺ، بعد أن يستخرجها من سور القرآن، قبل أن يصنفها في بحثه، بغرض فهم ظروف نزولها، وطبيعة الجو الذي نزلت فيه الآيات الكريمة، ليفهم مقاصد القرآن، في معالجة القضايا، وبعد ترتيبها بحسب النزول، له أن يصنفها بحسب عناصر الموضوع.

1 - انظر البرهان في علوم القرآن، الزركشي، 302/2 و 307.

2 - انظر منهج التفسير الموضوعي، د. سامر عبد الرحمن، ص: 262.

2 - في التفسير التحليلي قد يعالج المفسر عدة مواضيع بحسب ما يرد في الآيات والسور التي يتناولها.
- في التفسير الموضوعي لا يعتني المفسر إلا بالآيات التي قام بجمعها من السور في الموضوع الواحد، وبذلك يتمكن من علاج موضوعات كثيرة، كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتصل بسواه، ولا يختلط بغيره، فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة، ويعرفون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعية⁽¹⁾.
3 - في التفسير التحليلي يتعرض المفسر للألفاظ والآيات القرآنية بالشرح والتحليل، بما يتفق ومنهجه التفسيري وثقافته الخاصة.

- في التفسير الموضوعي يستفيد مما قام به المفسر التحليلي، إذ يجب عليه أن يكون على إحاطة ودراية بالمدلولات التفصيلية للآيات التي جمعها قبل الشروع في التفسير الموضوعي، ويحاول المفسر الموضوعي الجمع بين هذه المدلولات التفصيلية، والتنسيق بينها ليستخرج من مجموعها نظرية قرآنية واقعية متكاملة.
4 - في التفسير التحليلي ينظر المفسر في القرآن وسوره وآياته، يبدأ منه وينتهي إليه، كما يكون ذا اهتمام ورعاية للنظر في الواقع، لا يغادر آية إلا وينظر فيما يتصل بها من قضايا الواقع ومشكلات المجتمع، كما فعل ذلك رشيد رضا في تفسير المنار.

- في التفسير الموضوعي يبدأ من الواقع الذي يعيش فيه، ويدرك حاجات الأمة والإنسانية في عصره على مختلف جوانبها، فكرية سلوكية، وبعدها يعي هذه الحاجات الواقعية ويحسن تشخيصها ويتوجه إلى القرآن ليتفاعل معه ويتعلم منه ويعرف رأيه في هذه الحاجات والقضايا، فهو دائم الربط بين الواقع الذي تعيشه أمتة وبين القرآن.
- في التفسير الموضوعي: يمكن أن تنظم الموضوعات القرآنية، على هيئة أبحاث مستقلة - كما سبقت الإشارة - ينفرد بعضها عن بعض بالبحث والدراسة التي تظهر هداية القرآن على الوجه الذي يطمئن إليه القلب وبشق طريق الحياة لصاحبها، ويلهمه الرشد والسداد.

أما في التفسير التحليلي وبأساليبه المختلفة: يصعب على الناظر أن يجد ذلك.
ثم إننا نجد فوق ذلك: أن المنهج التحليلي: هو المعروف من القديم، والذي تزخر المكتبة القرآنية بالتفسير التي التزمت به.

أما الموضوعي: فهو - وإن وجدت له في القديم بذوره، وألفت فيه بعض الكتب، إلا أنه - لم يأخذ طابعه النهائي بعد، وما زالت المكتبة الإسلامية القرآنية تتطلع إلى الكثير من أبحاثه، يترجم هذا التطلع الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بقوله: "نود بكل الصدق والإخلاص أن تتضافر جهود العلماء والباحثين على المستوى الفردي والجماعي على هذا اللون من التفسير للتكامل مكتبة جلييلة في البحوث القرآنية"⁽²⁾.

فالتفسير التحليلي لا يستغني عنه الباحث في التفسير الإجمالي أو الموضوعي أو المقارن، وذلك لأن التفسير التحليلي ينصب على معرفة دلالة الكلمة اللغوية ودلالاتها الشرعية، والتعرف على الرابط بين الكلمات في الجملة وبين الجمل في الآية وبين الآيات في السورة، وكذلك التعرف على القراءات وأثرها على دلالة الآية، ووجوه الإعراب ودورها في الأساليب البيانية وإعجاز القرآن الكريم.

وغيرها من الوجوه التي تساعد على إجلاء المعنى وتوضيح المراد.

المطلب الثاني: الفرق بين التفسير الموضوعي وبين التفسير الإجمالي

1 - بينما يجد المفسر حسب منهج التفسير الموضوعي يهدف إلى: موضوع واحد متبوعاً لآياته حيثما كانت، في مكي القرآن أو مدنية بغض النظر عن ترتيبها المصحفي.
نجد أن صاحب التفسير الإجمالي - وإن كان: يعمد إلى الآيات القرآنية، قاصداً إلى معاني جملها، متبوعاً ما ترمي إليه من مقاصد، وتهدف إليه الجمل من معان، مبيناً لهذه المقاصد، وموضحاً لهذه المعاني، بوضع كل ذلك في إطار من العبارات التي يصوغها من ألفاظه⁽³⁾، فإن - يسير في تحقيق هدفه هذا غير مخالف ترتيب المصحف، بل متبوعاً له كما هو موجود في المصحف العثماني.

2 - في التفسير الموضوعي: يهدف الباحث إلى خدمة موضوع واحد، ويظل ملتزماً بالعمل في إطاره، حتى يتم له بحثه وتوضيحه في منهجه وموضوعية تمكنه من إبراز كل نواحيه، وتوضيح كل خوافيه، كما تمكنه من أما في التفسير الإجمالي: فإن المفسر لا يهدف إلى موضوع واحد، بل هو يتناول في تفسيره كل ما تشير إليه الآيات - بترتيبها المصحفي - من موضوعها دون أن يربط هذه الآية الواردة في هذا الموضوع بالأخرى التي في نفس الموضوع إلا إذا كانت بطريقة إجمالية، تستسيغها الجماهير، ويدركها من له من العلم زاد قليل.

1 - من هدى القرآن، الشيخ شلتوت، ص: 324.

2 - مقدمة (الإنسان في القرآن)، الدكتور: محمد عبد الرحمن بيبصار، ص: 3.

3 - التفسير الموضوعي، دكتور: أحمد السيد الكرمي، ص: 6.

فالذي يريد تفسير الآيات تفسيراً إجمالياً لا يستطيع أن يعبر عن موضوع الآيات التي يريد التعبير عنها بأسلوبه الخاص لتقريب المعاني وإبراز جوانب الهداية منها ما لم يلم بتفصيلات ما تقدم من أمور التفسير التحليلي، لاستجلاء المعنى المراد، ثم صياغته بأسلوب يتناسب مع المدارك الثقافية للمخابيين.

المطلب الثالث: الفرق بين التفسير الموضوعي وبين التفسير المقارن

1 - إن التفسير الموضوعي يهدف إلى دراسة موضوع قرآني واحد، ويتفق مع التفسير المقارن، في أن المفسر الموضوعي يجب عليه أن يتطلع على ما كتبه المفسرون في الآية التي يتناولها بالتفسير، حتى يصبح عنده دراية واسعة عن المقصد الحقيقي للآية ليستفيد منها في موضوعه.

- يهدف التفسير المقارن إلى "بيان الآيات القرآنية وفقاً لما كتبه جمع من المفسرين.

2 - الباحث في التفسير المقارن كي يصل إلى هدفه "لا بد أن يعمد إلى جملة من الآيات القرآنية في مكان واحد، مستطلعاً آراء المفسرين الذين كثيراً في هذه الجملة من الآيات سواء كانوا من السلف، أم من الخلف... الخ ويوازن بين هذه الاتجاهات المختلفة، والمشارب المتنوعة، فيما سلكه كل منهم في تفسيره، وما انتهجه في مسلكه"⁽¹⁾.

- أن التفسير الموضوعي كي يصل الباحث فيه إلى الهدف: لا بد من جمع الآيات القرآنية التي تتصل بنفس موضوع البحث، وتكوين الموضوع القرآني على ضوءها، والعمل لخدمته تحت ظلال مفاهيمها، كما عليه أن يستعين بما بحثه المفسر المقارن.

اذن نستنتج من كل ما تقدم أن أنواع التفسير متداخلة متساندة، لا يستغني المفسر لنوع منها عن الأنواع الأخرى. وبخاصة الباحث في التفسير الموضوعي لا بد أن يكون على مستوى رفيع من الإحاطة بأنواع التفسير الأخرى، لأن الأنواع الأخرى من التفسير هي اللبنة الأولى والمادة الأولية التي يريد إقامة بنيان تفسيره الموضوعي عليها.

المبحث الرابع: منهج التفسير الموضوعي للموضوع القرآني

المطلب الأول: خطوات منهج التفسير الموضوعي تفصيلاً

1 - نقصد بهذه الخطوة أن يميز المفسر هذا المصطلح عما يخالطه من أبحاث أخرى، حتى يتضح له عمله من أول الطريق، حتى يتجنب كثيراً من الأخطاء التي يقع فيها كثير من الباحثين، كتفسير السور المكية الذي نشر تحت عنوان: (التفسير الموضوعي للقرآن!)، للدكتور محمد البهي رحمه الله، وهو تفسير موجز يلتزم النمط المشهور في التفسير، حيث يقسم السورة إلى جملة مقاطع، يتناول كلا منا - على ترتيب السورة - بالبيان الأدبي الإجمالي، وبأسلوب محكم، وعرض جيد لكنه ليس تفسيراً موضوعياً.

2 - تحديد الموضوع المراد بحثه تحديداً دقيقاً، من حيث وجوده في القرآن أولاً، ثم من حيث المعنى ثانياً، حتى لا تختلط عليه القضايا، أو تتداخل المسائل، ثم من حيث الأوصاف كالإطلاق والتقييد، ونحو ذلك.

فالموضوع هو مجال البحث بعد تحديد معالم حدوده، ومعرفة أبعاد في الآيات القرآنية. وتحديد موضوع ما في القرآن الكريم، يلحظ الباحث تعرض القرآن المجيد له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق، أو تطراً مشكلة، أو تطرح قضية، فيراد بحثها من وجهة نظر قرآنية، وهنا نشير إلى عجيبة من عجائب القرآن الكريم المعجزة، تدلنا على أن القرآن دستور حياة، ومنهج عمل، فيه الشمول والعموم والكمال والبيان. خلاصتها: أنه ليس بمستغرب أن يجد باحث اهتمام القرآن صريحاً بموضوع معين، فيرى جوانب معالجة الموضوع ودراسته في القرآن كافية وافية، ولكن الغريب حقاً أن تقترح موضوعاً فتلج إلى عالم القرآن كأنما أنزل فيه، فيدهشك أن الموضوع قد استوفيت جوانب دراسته في القرآن، كأنما أنزل القرآن من أجله.

وطريقة الكتابة في هذا اللون تتم باستخراج الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بها تفسيراً وتأملاً يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال ما بين يديه من آيات، ثم ينسق بين تلك العناصر بحيث يقسمها إلى أبواب وفصول حسب حاجة الموضوع ويقدم لذلك بمقدمة حول أسلوب القرآن في عرض أفكار الموضوع.

ويكون منطلق العرض والاستدلال والدراسة هو آيات القرآن الكريم لا غير، مع ربط كل ذلك بواقع الناس ومشكلاتهم، وإن ذكر شيء من غير القرآن في الموضوع فيذكر من باب الاعتضاد لا الاعتماد.

وعلى الباحث أن يتجنب خلال بحثه أن يتعرض للأمور الجزئية في تفسير الآيات، وأن يذكر القراءات إن وجدت في موضوعه، لغرض زيادة توضيح المعنى، ووجوه الإعراب ونحو ذلك بمقدار ما يخدم الموضوع ويتصل به اتصالاً أساسياً مباشراً، والباحث في كل ذلك يهتم بأسلوب العرض لتوضيح مرامي القرآن وأهدافه ومقاصده، ليتمكن القارئ من فهم الموضوع وإدراك أسرارها من خلال القرآن بجاذبية العرض الشائق، وجودة السبك والحبك، ورصانة الأسلوب ودقة التعبيرات، وبيان الإشارات بأوضح العبارات، وهذا اللون من التفسير الموضوعي هو المشهور في عرف أهل

الاختصاص، وحتى أن اسم (التفسير الموضوعي) لا يكاد ينصرف إلا إليه، والمتتبع لهذا يجده جلياً، وسبب ذلك يتلخص في أمرين :

- 1- غزارة الموضوعات التي طرقتها القرآن وأشبعها دراسة وبحثاً.
 - 2- تجدد الموضوعات والمشكلات التي تحتاج إلى بحث من وجهة نظر قرآنية فالأولون صدروا من القرآن، والآخرين وردوا إلى القرآن، وكلاهما بحر و لا ساحل له، لا تكاد تنتهي موضوعاته أو تقف عند حد.
- ومن الكتب التي تعين على معرفة موضوعات القرآن وتحديدها:
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.
 - مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني.
 - المدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة.
 - تفصيل آيات القرآن الحكيم) للمستشرق الفرنسي (جول لابوم).
- الكتب لم يستوعب موضوعات القرآن، ولم يستوعب جميع الآيات تحت كل عنوان، وأحياناً يوضع آيات في غير مناسباتها.

- المعجم المفهرس لموضوعات القرآن.

3 - أما اختيار العنوان فينبغي أن يراعى فيه ما يأتي:

أ - أن يكون لفظاً قرآنياً صريحاً أو مشتقاً، ولا ينبغي العدول عن اللفظ القرآني إلى معناه إلا لضرورة، ولا يجوز البتة ترك اللفظ القرآني إلى غيره من مصطلحات الناس، خاصة مواطن الاشتباه، فلا يحل مثلاً أن يترك لفظ (الشورى) القرآني إلى لف آخر يظنه مرادفاً أو مقارباً مثل: (الديمقراطية في القرآن!!) فهذا لا يصح أصلاً، لأن الديمقراطية ليست هي الشورى، لأن الشورى عندما تكون فيما لا نص فيه، إذ الحكم والتشريع لله وحده، أما الديمقراطية فتقوم عندهم على أساس تشريع الشعب لنفسه.

ولا يترك لفظ (الزكاة) إلى أن يبدلها بلفظ (الاشتراكية أو الضريبة الاجتماعية)، أو لفظ الجاهلية بالعلمانية ونحوه، أو لفظ الجهاد في سبيل الله بلفظ (صراع الطبقات) ونحو ذلك من المصطلحات، التي تعني معاني محددة وقد تخالف القرآن في جملتها أو في تفاصيلها.

ومن الكتب التي تفيد في هذا:

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

- المفردات للراغب الأصفهاني.

- معجم ألفاظ القرآن الكريم، الذي أصدره مجمع اللغة العربية.

4 - جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع من الناحية: (اللفظية، والمقاربة، والمقابلة، ومعانيها...).

أن يتتبع الباحث لفظاً من كلمات القرآن الكريم ، ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها، وقد أصبح كثير من الكلمات القرآنية مصطلحات قرآنية ك(الأمة، والجهاد، والذين في قلوبهم مرض، والخلافة..).

وممن اعتنى بهذا اللون من المعاصرين الدكتور أحمد حسن فرحات في سلسلة سماها (بحث قرآني وضرب من التفسير الموضوعي) أصدر منها كتاب (الذين في قلوبهم مرض)، و(فطرة الله التي فطر الناس عليها)، و(الأمة في دلالاتها العربية والقرآنية) وغيرها..

وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها، وقد أصبح كثير من الكلمات القرآنية مصطلحات قرآنية ك(الأمة، والجهاد، والذين في قلوبهم مرض، والخلافة..)، وهذا اللون كما ترى قد اهتمت به كتب الأشباه والنظائر، إلا أنها بقيت في دائرة الكلمة في موضوعها، ولكن يحاول مؤلفوها أن يربطوا بينها في مختلف السور، مما أبقى تفسيرهم للكلمة في دائرة الدلالة اللفظية، أما المعاصرون فقد تتبعوا الكلمة وحاولوا الربط بين دلالاتها في مختلف المواطن، وأظهروا بذلك لوناً من البلاغة والإعجاز القرآني، وقد كان من نتائجها استنباط دلالات قرآنية بالغة الدقة، لم يكن بمقدورهم العثور عليها لولا انتهاجهم هذا السبيل، وممن اعتنى بهذا اللون من المعاصرين الدكتور أحمد حسن فرحات في سلسلة سماها: (بحث قرآني وضرب من التفسير الموضوعي)، أصدر منها كتاب (الذين في قلوبهم مرض)، و(فطرة الله التي فطر الناس عليها)، و(الأمة في دلالاتها العربية والقرآنية) وغيرها.. **والوجوه والنظائر** ، تعني: أن تكون كلمة واحدة ذكرت في القرآن في عدة مواضع على لفظ واحد وحركة واحدة وأريد بكل مكان معنى غير معناها في موضع آخر وتفسير كل كلمة بما يناسبها فالوجوه اسم للمعاني والنظائر اسم للألفاظ.

نموذج من كتاب (إصلاح الوجوه والنظائر) للدماغاني

قال الدماغاني تحت مادة (خ ي ر):

(خ ي ر) على ثمانية أوجه: المال، الإيمان، الإسلام، أفضل، العافية، الأجر، الطعام، الظفر والغنيمة.

فوجه منها الخير بمعنى المال ، قوله سبحانه في سورة البقرة: (إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً) يعني مالا كقوله تعالى فيها: (قل ما أنفقتم من خير فلولو الدين والأقربين) وكقوله تعالى في سورة البقرة: (وما تنفقوا من خير يوف إليكم) يعني من مال وقوله تعالى في سورة (عليه وسلم): (إني أحببت حب الخير) يعني حب المال وكقوله تعالى في سورة النور: (إن علمتم فيهم خيراً) يعني مالا.

والثاني: الخير يعني الإيمان، قوله تعالى في سورة الأنفال: (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) يعني لو علم الله فيهم إيماناً كقوله تعالى فيها: (يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً) يعني إيماناً كقوله تعالى في سورة هود: (ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يوتيهم الله خيراً) يعني إيماناً .

والثالث: الخير يعني الإسلام، قوله تعالى في سورة البقرة: (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) يعني الإسلام نظيرها في سورة (ق): (مناع للخير) يعني الإسلام نزلت في الوليد بن المغيرة منع ابن أخيه أن يسلم، نظيرها في سورة (ن) .

الرابع: خير يعني أفضل، قوله تعالى في سورة المؤمنين: (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) يعني أفضل الراحمين كقوله تعالى في سورة يونس: (وهو خير الحاكمين) أي أفضل الحاكمين، ونحوه قوله تعالى في سورة الزخرف (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) يقول أفضل من هذا.

الخامس: الخير يعني العافية . قوله تعالى في سورة الأنعام: (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير) يعني بعافية.

السادس: الخير يعني الأجر، قوله تعالى: (لكم فيها خير) يعني لكم فيها أجر، يعني البدن.

السابع: الخير يعني الطعام، قوله تعالى في سورة القصص: (قال رب إنني لما أنزلت إلي من خير فقير) يعني الطعام. الثامن: الخير يعني به الظفر والغنيمة والظن في القتال قوله تعالى في سورة الأحزاب: (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً) يعني ظفراً وغنيمة.

ونلاحظ أن المؤلف لم يربط بين أصل الكلمة واستعمالاتها وسياق الآيات التي وردت فيها الملة: ليبيني عليها هداية قرآنية أو ليستنبط من دلالات اللفظة وسياق استعمالاتها توجيهاً قرآنياً معيناً.. وإنما بقيت الكلمة حيث وردت في نطاق الدلالة اللفظية المفردة.

- وأما **غريب القرآن**، فهو: ألفاظ فصيحة في القرآن قد يخفى معناها أو يدق فتححتاج لشرح وتفسير وليس المراد أن تكون الكلمة مستوحشة غير مألوفة وإنما هو فصيح يحتاج إلى بيان.

نموذج من كتاب (المفردات في غريب القرآن)، للراغب الأصفهاني (ت 502 هـ) في كلمة (أمة)

والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما: إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك المر الجامع تسخييراً أو اختياراً، وجمعها أمم.

وقوله تعالى: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) أي كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي بين ناسجة كالعنكبوت، وبائية كالسرفة، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام إلى غير ذلك من الطوائف التي تخصص بها كل نوع .

وقوله تعالى: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أي في الإيمان، وقوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة) أي صنفاً واحداً وعلى طريقة واحدة في الضلال والكفر، وقوله تعالى: (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) أي في الإيمان. وقوله تعالى: (ولنكن منكم أمة يدعون إلى الخير) أي: جماعة يتخيرون العلم والعمل الصالح يكونون أسوة لغيرهم. وقوله تعالى: (إنا وجدنا آباءنا على أمة) أي على دين مجتمع.

قال الشاعر: وهل يأتمن ذو أمة وهو طائع، وقوله تعالى: (و ادكر بعد أمة) أي حين، وقرئ بعد أمة: أي نسيان وحقيقة ذلك بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين، وقوله تعالى: (إن إبراهيم كان أمة فانتأ لله) أي: قائماً مقام جماعة في عبادة الله نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة، وروي أنه يحشر زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده.

وقوله تعالى: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة) أي: جماعة، وجعلها الزجاج ها هنا للاستقامة، وقال تقديره ذو طريقة واحدة، فترك الإضمار.

ثم انتقل إلى لفظة (أمة) ودلالات الكلمة، ثم إلى كلمة (الإمام) ودلالاتها، ثم إلى كلمة (الأم) بمعنى القصد، وختم المادة بالحديث عن حرف (أماً).

وفي كل ذلك لم يتعرض لسياق الآيات التي استخدمت فيها كلمة (أمة)، وإنما تعرض لها في مواطنها، ولم يفصل القول في عناصر تكوين دلالات هذه اللفظة، ولا مقومات استمرارها ودورها.

وقارن ذلك بما كتبه الدكتور أحمد حسن فرحات حول مصطلح الأمة ودلالاتها اللغوية والفكرية والشرعية .

5 — تصنيف الآيات الكريم من حيث المكي والمدني، وترتيبها من حيث زمن النزول ما أمكن ذلك، فيعلم الباحث أن نزول هذه الآية كان في أول العهد، أو أوسطه، أو آخره، حتى تتضح له دقائق الموضوع القرآني، وخاصة في الأحكام

الشرعية التي تتوقف صحتها على معرفة الترتيب، كالأيات التي نزلت على طريقة التدرج التشريعي مثل: آيات الخمر والربا.

فالمفسر إذا علم أن قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)، آل عمران 130، نزل قبل آيات البقرة التي تحرم قليل الربا وكثيره، قال تعالى في سورة البقرة: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) {البقرة، 275}، علم المفسر أن ذلك تدرج في التشريع انتهى بالتحريم الكلي، وهذا هو الحكم الصحيح. والذي لا يعلم الترتيب فربما أخطأ في الحكم الشرعي حين يجعل آية الأضعاف مقيدة لآيات الإطلاق في البقرة، فيكون المحرم هو: (الأضعاف المضاعفة فقط) وهذا باطل.

ولا يستطيع المفسر أن يصل إلى معرفة صحيحة في تقدير موقف القرآن من اليهود إلا إذا نظر في الآيات المكية على حدة، وعلم شدة ننديها باليهود، رغم بعدهم عن المسلمين يومئذ، مما يقطع بأن هذا موقف تأصيل وتأسيس، وأن خلافنا مع اليهود هو قضية (اعتقاد وامتداد)، لا قضية مرحلية، لإصرار اليهود في كل زمان على تحريف الوحي، وطم الحق والإفساد في الأرض⁽¹⁾، من الكتب التي تعين على معرفة المكي والمدني:

1 - البرهان في علوم القرآن للزركشي.

2 - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

3 - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن لمحمد عبد الباقي، حيث يرمز للمكي بحرف: (ك) وللمدني بحرف (م) من حيث ثبوت الآية بأنها مكية أو مدنية، أو ترجيح أو الاحتمال في ذلك.

6 - فهم الآيات الكريمة قبل الشروع في التفسير الموضوعي، وهذا ضروري حتى يستطيع المفسر ترتيبها، وتأليف عناصرها، ولذلك ينبغي الرجوع إلى كتب التفسير التي تناسب الموضوع، ليعلم معاني الآيات الكريمة في مواضعها من ترتيب المصحف الشريف، وليتبين أحوالها المتعددة من حيث النسخ والمندوخ، أو العموم والخصوص، وأسباب النزول⁽²⁾.

وبهذا يكون التفسير التحليلي ضرورة للتفسير الموضوعي، فهما يتعاونان ولا يتعارضان، بل يتكاملان لخدمة النص القرآني، وإنضاج علم التفسير كله.

7 - بعد فهم الآيات الكريمة والنظر فيها مجتمعة يقسم المفسر الموضوع إلى عناصر وأجزاء منتزعة من صميم المعاني المقررة في الآيات الكريمة، ويربط بينها برباط علمي، يجعل من الموضوع وحدة واحدة، مسلسلة، ومرتبة ترتيباً فنيا يتفق مع النمط القرآني، فيقدم ما يتعلق بذات الله على كل شيء، وما يتعلق بالأصول على الفروع، وما يتصل بالفرائض على ما دونه، وهكذا يقدم الأهم على المهم، وجواهر الأشياء على أعراضها، فإذا استوت هذه العناصر أمام نظر المفسر، ضم إلى كل منها ما يلائمه من الآيات بلا تكلف ويفسر مفرداتها، ومعانيها المتصلة بالموضوع اتصالاً وثيقاً، مع الاقتصار على موضع الدلالة من الآية الكريمة إن كانت متعددة الأغراض، لأن التفسير هنا مرتبط (بالموضوع) ولكل مقام مقال.

تحديد موضوع ما، يلحظ الباحث تعرض القرآن المجيد له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق. وطريقة الكتابة في هذا اللون تتم باستخراج الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بها تفسيراً وتأملاً، يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال ما بين يديه من آيات، ثم ينسق بين تلك العناصر، بحيث يقسمها إلى أبواب وفصول حسب حاجة الموضوع، ويقدم لذلك بمقدمة حول أسلوب القرآن في عرض أفكار الموضوع.

8 - إسقاط النص القرآني على الواقع، وتفسيره بما يوافق ذلك، لأن القرآن منهج حياة، وليس كتاباً للإعجاب، فهو يساير الزمان، وآياته تعالج وتحل مشكلات كل عصر وكل أمة، وتهدى الحيارى إلى صراط مستقيم، ولهذا يجب أن تكون الدراسة منصبة على واقعية وليست مثالية، أو دراسة تحليلية بعيدة عن واقع الأمة ومستقبلها، فالغرض الأساسي هو الكشف عن هدي القرآن لأمة القرآن؛ خير أمة أخرجت للناس. وليكن هدف الباحث في كل ذلك:

أ - إبراز حقائق القرآن الكريم، وعرضها بشكل لافت للنظر، مع ذكر حكمة التشريع وجماله ووفائه بحاجات البشر، و ملاءمته للظفرة السليمة، وإطلاقه للطاقات الإيجابية في الإنسان.

1 - انظر كتاب معركة الوجود بين القرآن والتلمود، لعبد الستار فتح الله سعيد، ص: 77 وما بعدها، وهو لون من ألوان التفسير الموضوعي.

2 - يفيد في معرفة أسباب النزول كتاب (أسباب النزول) للواحدي، وكتب التفسير.

- إظهار وجوه الإعجاز المتجدد في القرآن الكريم⁽¹⁾؛ ولأن القرآن معجز، وهو معجزة النبي ودليله، وهداه وسبيله، فصار معجزة خالدة دائمة، لأنه دليل الرسالة الخاتمة، وصوت النبوة الممدود، فهو عليه وسلم: (خاتم النبيين)⁽²⁾؛ ونلاحظ هنا إضافة (خاتم) إلى الذوات: (لفظ النبيين)، وليس إلى المعاني: (النبوات)؛ إذ إننا ببقاء النبوة بعد انقطاع الأنبياء، لأن الله ضمن حفظها بحفظ القرآن، فلا حاجة إلى نبي جديد، لوقوع الختم، ولا حاجة إلى نبوة جديدة لبقاء النبوة ممدودة موصولة، على عكس دعاوى الفرق الكافرة المرتدة كالبهائية، والقديانية، فالقرآن كلمة الله الباقية المحفوظة، وشرعته ومناهجه للناس أجمعين إلى يوم الدين، وإلى هذا المعنى يشير قوله عليه وسلم: (من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبه غير أنه لا يوحى إليه)⁽³⁾.

ومن هنا كانت هذه المعجزة متجددة العطاء، وتتبدى بحجة الله البالغة في كل زمان وتظهر جلائل حكمته في كل مقام، فيرى الناس ما يناسب أحوالهم في كل عصر، وكأن الوحي لا يزال ينتزل بها غضا طريا، أو لكأنها (الكلمة الطيبة) التي عناها القرآن:

(ألم ترى كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذنه ربها)⁽⁴⁾، ولقد ركبت هذه المعجزة الإلهية لتخاطب الإنسان من جميع أقطاره، ولتحرك منه العقل والقلب، والحس والفطرة، حتى يتعامل معها على أساس من الفقه البصير، والتدبر الواعي.⁽⁵⁾

ب - عرض تلك الحقائق بأسلوب مشرق عذب؛ بذكر الأفكار متسلسلة آخذة برقاب بعضها، ملبية لاستشراف نفس القارئ، مجيبة عن استفساراته المتوقعة، وذلك باتباع الأسلوب البياني الصحيح؛ الذي يفهمه أهل عصره، متجنباً الألفاظ الغريبة المهجورة، وأساليب السجع المتكلفة.

9 - وهي التقيد بقواعد وضوابط هذا التفسير، فالقصد منها لفت انتباه المفسرين إليها ووجوب مراعاتها، حتى يتجنب الحشو، والاستطراد والتقسيمات الفنية المحضة التي وردت في مصطلحات العلوم المنطقية والفلسفية وغيرها، ولا يتورط في تقسيمات أو تعقيد قواعد⁽⁶⁾ لا تشهد لها نصوص القرآن الكريم المباشر⁽⁷⁾.

ملاحظات:

1 - على الباحث في التفسير الموضوعي أن يجعل عناوين الأبواب والفصول من المادة القرآنية والعناصر البارزة فيه، أما السنة المشرفة فدورها في التفسير الموضوعي التوضيحي والبيان والاستدلال؛ وذلك حفاظاً على قرآنية الموضوع، وكذلك أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة اللغة، فكلها مادة للشرح والتوضيح والترجيح، ولا تشكل عناصر الموضوع الأساسية.

2 - على الباحث أن يلتزم بالمنهج الصحيح في التفسير؛ وذلك بإبعاد الروايات الضعيفة، والإسرائيليات والقصص التاريخي عند عرض الموضوع القرآني، إلا بقدر ما تقتضيه الحاجة، وتركيز الجهد لاستنتاج النصوص الكريمة على قواعد اللغة والأساليب البيانية ودقة الاستنباط منها.

2 - عند الحاجة إلى شرح كلمة غريبة أو توجيه قراءة، أو إبراز نكتة بلاغية أثناء عرض أحد عناصر الموضوع، يسردها بحيث لا تخل بالأسلوب؛ بحيث تندمج مع الموضوع دون خلل أو إخلال بسياق النص، أو من غير استطراد يخل بتسلسل الأفكار، حتى يحافظ على تعانق الفقرات وسلاسة الأسلوب وإشراق البيان. انتهت المقدمة في التفسير الموضوعي باختصار.

1 - فلقد أعجز فصحاء العرب، وعلماء الأمم، وما من منصف يتدبر القرآن العظيم إلا أيقن بإعجازه المبين في كل جوانبه، وأقرب مثال لذلك ما ألفه جاري ميللر (القرآن المذهل أو المعجز)، والكتاب الذي ألفه الطبيب الفرنسي (موريس بوكاي): (القرآن والتوراة والإنجيل والعلم - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، انتهى فيه علمياً إلى إعلان الثقة التامة بالنص القرآني وحده، وكتاب: (لماذا أسلمنا)، وكتاب: (رجال ونساء أسلموا)، ففيه تفصيل واع عن شهادات عباقرة الأمم للقرآن، وفضله عليهم حين قادهم إلى الإيمان.

2 - الأحزاب: 40.

3 - أخرجه الحاكم في مستدركه، عن عمرو بن العاص، أخبار في فضائل القرآن جملة، 738/1، رقم: 2028، والبيهقي في شعب الإيمان، فصل في التكاثر بالقرآن والفرح به، 522/2، رقم: 2591.

4 - إبراهيم: 24-25.

5 - انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص: 54.

6 - مثال عن القواعد الجليلة ما قاله ابن فارس في كتابه الأفراد: (كل ما في القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن، إلا قوله تعالى: (فلما أسفونا انتقمنا منهم..)) فمعناه: أغضبونا، انظر الإقتان في علوم القرآن، 143/1، النوع: 39، معرفة الوجوه والنظائر.

7 - انظر المدخل إلى التفسير الموضوعي لعبد الستار فتح الله سعيد، من ص: 56 - 66، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، ط2، 1411هـ/1991م.

المبحث الخامس: منهج التفسير الموضوعي في أنواع التفسير الموضوعي

أولاً - النوع الأول - منهج التفسير الموضوعي للموضوع القرآني:
تحديد موضوع ما، يلحظ الباحث تعرض القرآن المجيد له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق. ثم استخراج الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بها تفسيراً وتأملاً، يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال ما بين يديه من آيات، ثم ينسق بين تلك العناصر، بحيث يقسمها إلى أبواب وفصول حسب حاجة الموضوع، ويقدم لذلك بمقدمة حول أسلوب القرآن في عرض أفكار الموضوع، ثم إسقاط الموضوع على الواقع. خطوات منهج التفسير الموضوعي إجمالاً

1 - تحديد الموضوع القرآني المراد بحثه؛ تحديداً دقيقاً من حيث المعنى.
أي: تحديد حلقة البداية، وهي الكلمة، أو الموضوع المراد ليكون محلاً للعمل.
ويكون اختيار عنوان للموضوع من ألفاظ القرآن ذاته، أو عنوان منتزح من صميم معانيه القرآنية.
أي: أن يهتم المفسر باختيار الموضوع، واستقراء المصحف من خلال نصوصه لحشد الآيات ذات العلاقة في موضع واحد ليتسنى بذلك فهم الموضوع.

2 - جمع الآيات الكريمة المتعلقة بالموضوع، والعناية باختيار جوامعها عند إيراد الاختصار.

3 - تصنيف الآيات من حيث المكي والمدني، وترتيبها من حيث زمن النزول ما أمكن.
وهذا يعني: ترتيب الموضوع وتصنيفه من خلال وضع الكلمة في الآيات القرآنية المختلفة، ليتسنى له معرفة الرابط بينها، ليصل بذلك إلى موضوع متكامل الأطراف. فقد يلجأ الباحث أحياناً إلى معرفة التسلسل التدريجي لنزول الآيات، وقد يحتاج أحياناً أخرى إلى التسلسل الموضوعي للقضية المعينة؛ ليصل من خلال ذلك إلى حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل، وهكذا.

وفهم الآيات الكريمة بالرجوع إلى تفاسيرها، ومعرفة أحوالها من حيث أسباب النزول، وتدرج التشريع، والنسخ والعموم والخصوص، وغير ذلك مما يتقرر به المعنى.

أي: لا بد للباحث من ملاحظة موقع النص ومحيطه سابقاً ولحاقاً وموضعاً، كما أن أسباب النزول الصحيحة أمر هام لا بد من الاعتماد عليه لإدراك الجو الحقيقي للنص القرآني.

وذلك: بالغوص على معرفة المنهج القرآني في تناول وضع الكلمة، أو الموضوع، حتى صار حقيقة واقعة مسلمة، فقد يختار الباحث ما يتعلق بالعقيدة ليصل إلى حكم اعتقادي، وقد يختار موضوعاً أخلاقياً، أو أدبياً سامياً، أو حكماً شرعياً، وهكذا يتبين له منهج القرآن في هذا الموضوع أو ذاك فيستفيد من ذلك في تناوله للموضوع الذي يريد البحث فيه.

ويكون تقسيم الموضوع إلى عناصر مترابطة، منتزعة من الآيات ذاتها، ورد الآيات إلى عناصرها ومواضعها من البناء الكلي للموضوع، مع تفسير موجز لما يحتاج منها إلى تفسير، واستنباط حقائقها القريبة من غير تكلف، ورد الشبهات عن الموضوع ذاته.

4 - إسقاط النص القرآني على الواقع، وتفسيره بما يوافق ذلك، والعلم بأن القرآن قد اختزل الزمان والمكان، وركز على جنس الإنسان بغض النظر عن زمانه ومكانه، فأحكامه أصول ثابتة لا بد أن تؤخذ بالحسبان أثناء الخوض في هذا الميدان، ليكون التفسير واقعاً في موضعه الصحيح دون إفراط أو تقريط، أو ترهل أو شطط.

ثانياً - منهج التفسير الموضوعي لسورة قرآنية

منهج البحث في التفسير الموضوعي من خلال الهدف الأساسي للسورة:

أولاً: التقديم للسورة بتمهيد يعرف فيه بأمور تتعلق بالسورة من ذكر سبب النزول والمرحلة التي نزلت فيها السورة مكية متقدمة أو متوسطة أو متأخرة، مدنية متقدمة أو متأخرة وما ورد فيها من أحاديث صحيحة، تحدد أسماءها أو بعض خصائصها أو فضائلها.

ثانياً: محاولة التعرف على الهدف الأساسي في السورة والمحور الذي تدور حوله ويكون ذلك من خلال دلالة الاسم أو الموضوعات المطروحة في السورة أو أخذاً من المرحلة التي نزلت فيها.

ثالثاً: تقسيم السورة وبخاصة الطويلة إلى مقاطع أو فقرات تتحدث آياتها عن عنصر من عناصر الهدف أو مجال من مجالات المحور واستنباط الهدايات القرآنية منها وذكر المناسبات بينها.

رابعاً: ربط هذه المقاطع وما يستنبط من هدايات من كل منها بالهدف الأساسي للسورة بقصد إظهار هذا الهدف وكأنها جداول صغيرة تمد المجرى الأساسي للنهر أو الشيطان الملتفة حول جذع الدوحة تقوي أصلها وتدعم ساقها وتوازرها متنها لتستوي على سوقها وتعجب الناظرين فيها.

المطلب الثالث: التفسير الموضوعي لسورة قرآنية (تحديد محور السورة):

قبل البدء في تفسير السورة لابد من دراسة أولية حول السورة تحت عنوان: بين يدي السورة أو على هامش السورة تتناول:

أ - معرفة سبب نزولها أو أسباب نزول مقاطعها، فربما نزلت السورة جملة واحدة ويكون لها سبب نزول واحد، وربما نزلت السورة متفرقة لمناسبات متعددة، وعند التمعن تجد أن عموماً السورة أو المحور الذي تدور حوله السورة يربط هذه المقاطع أو الآيات بنظام معين، فمعرفة أسباب النزول تعين على التعرف على هذا النظام الذي يجمع عقد السورة أو المحور الذي تدور السورة حوله.

ومعرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية، ولهذا قال الواحدى: (لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها)، وقال ابن دقيق العيد: (بيان سبب النزول طريق قوى في فهم معاني القرآن) وقال ابن تيمية: (معرفة سبب النزول بعين على فهم الآية. فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب).

ب - التعرف على الهدف الأساسي للسورة أو المحور الذي تدور السورة حوله:

1 - يمكن معرفة ذلك من خلال التعرف على دلالة اسم السورة أو أسمائها التي تثبت عن طريق الوحي، أي بالتوقيف عن رسول الله ﷺ، يقول البقاعي في نظم الدرر: (قال شيخنا الإمام المحقق أبو الفضل محمد الجاني المالكي.. الأمر الكلي المقيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقته له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من مقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغة شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيم على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة).

2 - ويمكن التعرف على هدف السورة أو محورها من خلال استعراض الأحداث البارزة أو القضايا الأساسية التي تناولتها السورة، فلو أمعنا النظر في القضايا البارزة في السورة، لوجدنا أن بينها رابطاً يربطها، وقد يدق هذا الرابط فلا يدرك إلا بعد دراسة السورة دراسة عميقة، ومعايشة أجوائها وتقبُّو ظلالها.

3 - كما يمكن التعرف على هدف السورة أو أهدافها من خلال المرحلة الزمنية التي نزلت فيها السورة فمن المعلوم أن السور المكية أكدت على تقرير أربعة أمور: الإيمان بالله وحده، الإيمان بالبعث بعد الموت، الإيمان بالرسالات السماوية، الدعوة إلى أمهات الأخلاق، فإذا كانت السورة مكية فلا يخلو الأمر من أن يكون من أهدافها الأساسية، هذه الأسس الأربعة مجتمعة أو متفرقة، والسور المدنية بالإضافة إلى تقرير ما سبق استهدفت بناء المجتمع الإسلامي على أسس من الإيمان، والطاعة والتشريعات التفصيلية في شؤون الحياة، كما استهدفت حماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الداخلية والخارجية، بكشف خطط المتآمرين الحاقدين؛ الساعين في الأرض بالفساد؛ من اليهود والمنافقين، فلا تخلو سورة مدنية من قضية البناء، أو الصيانة والحماية، فيمكن التعرف على الهدف الأساسي أيضاً، من خلال التعرف على القضايا المعروضة في السورة، ومن خلال المرحلة الزمنية لتطور المجتمع الإسلامي، فسورة الكهف مثلاً يمكن تحديد عدة محاور أو أهداف لها فمثلاً: عندما ندرك أنها سورة مكية نزلت في مرحلة متقدمة من مراحل الدعوة إلى الله، فقد ورد في صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: في بني إسرائيل _ أي الإسراء _ والكهف ومريم، إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي، وكما قلنا: إن السورة المكية جاءت لترسيخ أسس أربعة فيمكن رصد آيات السورة ومقاطعها من زاوية أي أساس من هذه الأسس، فلو أخذنا قضية الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، ونظرنا إلى افتتاحية السورة وإلى قصصها الأربع وإلى خاتمها، لوجدنا أن قضية التوحيد لافتة للنظر فيها، ولا يخلو مقطع من هذه المقاطع من الدعوة الصريحة إلى توجيه العبادة لله سبحانه وتعالى والإخلاص له، في القول والعمل، وترك عبادة الطواغيت والآلهة المزعومة والشركاء، ولو حددنا وجهة نظرنا في البحث عن الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر من خلال افتتاحية سورة الكهف وقصصها الأربع وخاتمها، لوجدناها من أبرز القضايا في كل المقاطع، بحيث لا نحتاج إلا لاستعراض سريع للآيات والأدلة أكثر من أن تساق للاستشهاد بها، ولو أمعنا النظر في الآيات باحثين عن قضية إثبات رسالة محمد ﷺ من خلال آيات السورة لوجدناها محورا أساسا في ذلك يعيننا في تحديد معالم ذلك سبب النزول، والافتتاحية والخاتمة بشكل قوي لافت للنظر، ولوجدنا أن هنالك روابط قوية تشد القصص الأربع إلى هذا المحور شدا لا يمكن الفكك منه . ولو أردنا أن نلقي أضواء على أمهات الأخلاق التي استهدفت سورة الكهف ترسيخها، والقيم الثابتة التي دعت إليها بالدعوة الصريحة لها أحيانا، والتمثيل الرائع بضرب الأمثال للقيم الحقيقية وضرب الأمثال للقيم الزائفة الخادعة التي تموه الباطل على الناس، وتظهره على غير حقيقته أحيانا أخرى، وبالترغيب في التمسك بالحقائق والقيم الخلقية الرفيعة، والترهيب من القيم الزائفة الداجلة أحيانا، لأدركنا أن هذا الهدف الذي ترمي إليه السورة، لا يقل أهمية عن الأهداف الثلاثة الأولى.. وهكذا فحينما نحدد زاوية الرصد للآيات الكريمة ومقاطع السورة _ بشرط أن تكون رؤيتنا صحيحة، وإحاطتنا بقضايا

السورة العامة وأسباب نزولها دقيقة _ نجد أن لكل سورة شخصيتها المستقلة، وهدفها أو أهدافها المحددة، التي ترمي إليها، وأسلوبها الخاص بها، واختيار طريقة العرض للقضايا، وسوق القصص اختصاراً أو إسهاباً أو إشارات مقتضبة، كل ذلك لتكمل شخصية السورة وأجواؤها لإبراز الهدف الأساسي أو القضايا الرئيسية التي تناولتها السورة.

4 - المناسبات بين مقاطع السورة ودورها في التعرف على هدف السورة أو محورها: عند تقسيم السورة إلى مقاطع أو فقرات حسب ارتباط الآيات بعنصر من عناصر الموضوع، لا بد من الرجوع إلى كتب التفسير الموثوقة للإطلاع على الروايات الصحيحة؛ من السنة النبوية وأقوال الصحابة والتابعين في تفسير الآيات، والرجوع إلى الكتب التي تناولت المناسبات بين الآيات في السورة الواحدة، مثل تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وذلك للإحاطة بمعاني الآيات ومحاولة التعرف على المناسبات بين هذه المقاطع فقد تكون المناسبة جلية واضحة بينها، وقد تدق فلا تظهر وقد تكون المناسبات بينها وبين محور السورة ظاهرة جلية، وقد تكون دقيقة خافية، وكثيراً ما يكون التعرف على المناسبات بين المقاطع، طريقاً لمعرفة الهدف الأساسي في السورة، فكثير من السور القرآنية يرد فيها العجز على الصدر لترسيخ مفاهيم معينة، أو التذكير بقضية جاءت لسورة لبيانها.

الخطوات المرحلية المتدرجة التي يراها للسير في التفسير الموضوعي لسورة واحدة إجمالاً:

1- ذكر اسم السورة التوقيفي، وإذا كان لها أكثر من اسم توقيفي يذكرها، ويبين حكمة تسميتها بذلك الاسم، ويلاحظ الصلة بين اسمها التوقيفي وبين موضوعها العام.

2- معرفة اسم السورة الاجتهادي سواء أطلقه عليها علماء سابقون، أو تمكن هو من إدراكه والربط بين اسمها الاجتهادي وبين موضوعها.

3- تحديد زمان ومكان نزول السورة، وهل هي مكية أم مدنية؟.

4- بيان جو نزول السورة، وهل نزلت في المرحلة المتقدمة أو المرحلة المتوسطة أو المتأخرة من مرحلة الدعوة الإسلامية في عهد المكي أو المدني؟.

5- تحديد أهداف السورة الأساسية ومقاصدها الرئيسية، واستخراج هذه الأهداف والمقاصد من خلال القراءة الواعية المتدبرة لآيات السور عدة مرات، والاستدلال على كل هدف أو مقصد يسجله بمجموعة من آيات السورة.

6- التعرف على موضوع السورة الرئيس، ثم التعرف على محاور السورة وخطوطها الرئيسية وربط هذه المحاور والخطوط مع عمود السورة والاستشهاد على ذلك بآيات السورة.

7- ربط السورة بما قبلها من السور حسب ترتيب المصحف من حيث التناسب في الموضوع العام لكل منها.

8- تقسيم السور الطويلة والمتوسطة إلى أقسام وبيان مقدمة السورة وأقسامها وخاتمتها وتوزيع آياتها على الأقسام.

9- إذا لم يتيسر تقسيمها إلى أقسام، تقسم إلى وحدات أساسية وذكر موضوع كل وحدة وآياتها وبيان الصلة بين تلك الوحدات.

10- استخلاص أهم حقائق السورة والدلالات التي نقرها، والإشارة إلى أبعاد السور الواقعية وكيفية معالجتها لمشكلات الإنسان المعاصرة.

11- الإطلاع على تفسير السور في أمهات الكتب كتفاسير، ابن كثير وسيد قطب و لمعرفة تفسيرها التحليلي في هذه التفاسير.

دراسة أنواع وألوان التفسير الموضوعي من خلال نماذج تطبيقية

النوع الأول: التفسير الموضوعي للموضوع القرآني

1 - عقيدة التوحيد في القرآن الكريم.

2 - الولاء والبراء في القرآن الكريم.

3 - الوسطية في القرآن الكريم.

4 - الصلاة في القرآن الكريم.

5 - العلم والعلماء في القرآن الكريم.

الموضوعي الأول: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم

النوع الأول: التفسير الموضوعي للموضوع القرآني المبحث الأول: عقيدة التوحيد في القرآن الكريم

تمهيد

إن للعقيدة الصحيحة مكانتها العظمى في إصلاح حياة الناس، ونشر الطمأنينة والاستقرار في جوانب النفس وفي ربوع الأرض.

ولما كانت العقيدة تتعرض دائما إلى هجوم مستمر من أعداء الله على مدى الأيام، حتى أثرت على كثير من الشباب في مختلف أقطار العالم الإسلامي، فأضعفت العقيدة في نفوسهم، وبدا ذلك واضحا في انحراف الشباب إلى الاقتداء بالغرب والارتواء من عقائدهم الفاسدة، لذا وجب توضيح هذه العقيدة والاعتماد في توضيحها وفقا لما جاء في القرآن الكريم.

- تعريف العقيدة لغة: مأخوذة من العقد، "وهو نقيض الحل، وهو وصل الشيء بغيره، كما تعقد الحبل بالحبل، ثم استعمل في جميع أنواع العقود في المعاني والأجسام"⁽¹⁾، وهو يدل على الشدة والثوق، من استعمالته في المعاني أن يقال: عقد العهد واليمين، أي: أكدهما، منه قوله تعالى: (والذين عقدت أيمانهم)، النساء: 33، وقرئ بالتشديد ومعناه التوكيد والتغليظ كقوله تعالى: (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها)، النحل: 91.

استعمل العقد في البيع والنكاح وغيره فيقال: عقد البيع وعقد النكاح، وعقدته: إبرامه وإحكامه ووجوبه، ومنه: اعتقد الأمر: أي صدقه، واعتقدت كذا: عقدت عليه القلب والضمير، حتى قيل: العقيدة: هي ما يدين الإنسان به⁽²⁾.

تعريف العقيدة شرعا: هي ما يدين به الإنسان ربه، وجمعها عقائد، والعقيدة مجموعة الأمور الدينية التي يجب على المسلم أن يصدق بها قلبه وتطمئن إليها نفسه، وتكون يقينا عنده، لا يمازجه شك، ولا يخالطه ريب، فإن كان فيها ريب أو شك كانت ظنا لا عقيدة، ودليل ذلك قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا)، الحجرات: 15، وقوله تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب)، البقرة: 2، وقوله تعالى: (إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه)، آل عمران: 9.

قال محمود خطاب: "العقيدة هي مثل عليا يؤمن بها الإنسان فيضحى من أجلها بالأموال والنفس، لأنها عنده أعلى من الأموال والنفس"⁽³⁾.

أنواع التوحيد الثلاثة وكيف يحصل الإشراف بكل نوع منها

1 - توحيد الربوبية:

أ - معناه هو الاعتقاد الجازم بأن الله وحده هو رب كل شيء ومليكه، وهو الخالق الرازق المحيي المميت الضار النافع المعطي المانع، المتصرف في هذا الكون بمشيئته المطلقة، وليس معه رب آخر يشركه⁽⁴⁾.

والقلوب مفطورة على الاعتراف بالرب سبحانه أكثر من اعترافهم بأي شيء آخر، ولذلك أجاب الرسل أممهم بالاستفهام الإنكاري بقولهم: (أفي الله شك فاطر السموات والأرض)، إبراهيم: 10.

وقد كان المشركون مقرين بتوحيد الربوبية، وذلك واضح في كثير من آيات القرآن الكريم⁵، منها قوله تعالى: (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون)، يونس: 31.

ب - الشرك في الربوبية: المثبتون للخالق نوعان: أهل توحيد، وأهل إشراك في الربوبية، ولم يقع الشرك في الربوبية إلا من طوائف معدودة، والشرك في الربوبية نوعان:

النوع الأول: **شرك التعطيل:** وهو من أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون عندما قال: (وما رب العالمين)، الشعراء: 23، فهو أشهر من أنكر الصانع لكنه كان في الباطن مستيقنا أن موسى أصدق منه في الدعوة لربوبية الله، قال تعالى عنه وعن

1 - ينظر: معجم مقاييس اللغة، 87/4، ولسان العرب، 413/3.

2 - ينظر: معجم مقاييس اللغة، 88/4، والمصباح المنير، 71/2.

3 - ينظر: بين العقيدة والقيادة، محمود خطاب، ص: 33.

4 - ينظر: عقيدة التوحيد، ملكاوي، ص: 110.

5 - ينظر: سورة المؤمنون: 84 - 89، ولقمان: 25، الزخرف: 9، و 87.

قومه: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)، النمل: 14، لذلك كان رد موسى عليه: (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر)، الإسراء: 102.

وكذلك القائلون بالصدفة والطبيعة، والدهريون الذين قالوا: (ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)، الجاثية: 24، وهم الشيوعيون في زماننا، وكذلك الفلاسفة القائلون بقدم العالم وأبديته، وأن العقل الفعال هو الخالق المدبر لكل ما تحته، ومنهم الذين يقولون بأن النجوم أحياء فاعلة مؤثرة بالخلق.

النوع الثاني: من شرك الربوبية يكون باعتقاد أكثر من صانع للعالم؛ كالثنوية من المجوس الذين يقولون بوجود أصليين خالقين للعالم وهما: يزدان إله النور، ويخلق الخير، وأهرمن: إله الظلمة ويخلق الشر، لكن إليه الخير عندهم أحسن من إله الشر.

وكذلك شرك النصارى الذين يقولون بالآب والابن والروح القدس، ولكنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب منفصلة، بل يقولون بأن صانع العالم واحد، وهم مضطربون جدا في تعبيرهم بالأقانيم الثلاثة لأنهم يفسرون الألقوم تارة بالخواص، وتارة بالأشخاص، وأخرى بالصفات⁽¹⁾.

2 - توحيد الألوهية:

أ - معناه: وهو المسمى بتوحيد العبادة، أو التوحيد العملي، ومعناه الاعتقاد الجازم بأن الله وحده هو المستحق لجميع أنواع العبادة، مع القيام بصرف هذه العبادات له وحده، ولا يصرف منها شيء لغيره، والكلمة المعبرة عن هذا المعنى أدق تعبير هي كلمة الشهادة: لا إله إلا الله، فمعناها أنه لا معبود بحق إلا الله⁽²⁾.

وهذا التوحيد هو الذي جاءت به الرسل، ودعوا إليه أقوامهم، فالرسل مقررون لتوحيد الربوبية، دأبون لتوحيد الألوهية، كما أخبر الله عنهم⁽³⁾، فقال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)، الأنبياء: 25، وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: (والى مدين أخاهم شعيب قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، هود: 84.

فكان كل رسول أول ما يقرع به سمع قومهم: (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)، وافتتاح الدعوة بهذا النداء دليل أكيد على أن الرسل لم يبعثوا لتعريف الخلق بخالقهم وإثبات وجوده، لأن معرفته والإيمان بوجوده فطري إنما بعثوا لتعبيد الخلق لإلههم ومعبودهم الحق، ونبذ ما يعبد من دونه من الآلهة المزعومة⁽⁴⁾.

وفي هذا النوع من التوحيد - توحيد الألوهية - وقع النزاع بين الرسل وأممهم، حيث أنكر المشركون الدعوة لتوحيد الإله المعبود بقولهم: (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب)، ص: 5، ولهذا كان سياق الآيات الدالة على الربوبية يأتي بالاستفهام التقريري لأنهم مقررون بالرب، كقوله تعالى: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)، النحل: 17، وقوله تعالى: (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين)، لقمان: 11، وقوله تعالى: (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون)، فاطر: 3.

ويتضح هذا المعنى تماما إذا علمنا أن مبدأ انحراف البشرية عن حقيقة التوحيد لم يكن شركا في الربوبية، إنما كان شركا في الألوهية، وهكذا كل انحراف خلال التاريخ البشري، إنما كان عن طريق الانحراف في العبادة، قال تعالى عن قول نوح عليه السلام: (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)، نوح: 23، وهي أسماء رجال صالحين ماتوا فصورهم قومهم ثم جاء من بعدهم فعبدوهم⁽⁵⁾.

وكذا شرك كل قوم كان مبدؤه من عبادة غير الله، كذلك العرب الذين كانوا على بقية من دين إبراهيم حتى جاء عمرو بن عامر الخزاعي بأصنام من الشام إلى الجزيرة، فنصب هبل، وعبدته وعظمه، وتبعه الناس في ذلك⁽⁶⁾.

1 - ينظر: الفتاوي، 96/3، ودعوة التوحيد للهراس، ص: 33، وتيسير العزيز الحميد، ص: 27.

2 - ينظر: الفتاوي، 104/1، و106/19، ومدارج السالكين، 25/1، واجتماع الجيوش الإسلامية، ص: 47، وشرح الطحاوية، ص: 23.

3 - ينظر: تيسير العزيز الحميد، ص: 20.

4 - ينظر: الفتاوي، 332/16، ومدارج السالكين، 443/3، ومفتاح دار السعادة، 212/1، وتطهير الاعتقاد للصنعاني، ص: 6.

5 - ينظر: إغاثة اللهفان، 209/2، وفتح الباري، 667/8، كتاب التفسير.

6 - ينظر: فتح الباري، 383/8، كتاب التفسير، وإغاثة اللهفان، 221/2.

ب - الشرك في الألوهية: هذا أدق أنواع الشرك وأكثرها شيوعاً بين الناس، فمن صرف أي نوع من أنواع العبادات لغير الله أو صرفها لله ولغيره، فهو مشرك في الألوهية⁽¹⁾، ولذلك حارب القرآن هذا النوع من الشرك، وهدم وسائله فقال تعالى في عبادة الحب: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله)، البقرة: 165، وقال تعالى في عبادة التوكل: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)، المائدة: 23، وقال تعالى في عبادة الخوف: (فإن الله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين)، التوبة: 13، وقال في عبادة الرجاء: (أولئك يرجون رحمة الله)، البقرة: 218، وقال تعالى في عبادة الدعاء: (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين)، يونس: 106، وقال في عبادة الصلاة والذبح: (فصل لربك وانحر)، الكوثر: 3، وقال في عبادة الصلاة والزكاة: (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير)، الحج: 78، وقال في عبادة الطواف والنذر: (ثم ليقضوا تفثهم وليفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق)، الحج: 29، وقال في عبادة الاستغفار: (والذين إذا فعلوا فحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله)، آل عمران: 135، وقال في عبادة الاستعاذة: (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)، النحل: 98، وقال: (قل أعوذ برب الفلق)، الفلق: 1، وقال في عبادة الاستغاثة: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم)، الأنفال: 9...

3 - توحيد الأسماء والصفات: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في الرسالة التدمرية: (فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله نفيًا وإثباتًا، فيثبت لله ما أثبتته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها: إثبات ما أثبتته من الصفات من غير تكليف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبتته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون)، وقال تعالى: (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خيرا أم يأتي أما يوم القيامة اعملوا ما شئتم)، فصلت: 40، فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات: إثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل كما قال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، الشورى: 11، ففي قوله: (ليس كمثله شيء)، رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله: (وهو السميع البصير)، رد للإلحاد والتعطيل⁽²⁾.

المنهج القرآني في تقرير عقيدة التوحيد

إن للقرآن الكريم منهجه الخاص به في تقرير عقيدة التوحيد، وذلك لأنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنعرض للطريقة التي سلكها القرآن في تقرير عقيدة التوحيد ومحاربة الشرك، وهذه بعض تلك الطرق كالاتي:

المبحث الأول: تقرير القرآن للتوحيد بالأدلة الكونية

إنني لن أتحدث في هذا الفصل عن الآيات القرآنية الكونية بمنطق النظريات العلمية؛ لأن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز لا كتاب فيزياء وكيمياء وجيولوجيا وغيرها من العلوم العصرية، وكلامي على الآيات القرآنية الكونية من حيث بساطتها ووضوحها، وأن النظر فيها يؤدي لمعرفة الله ووحدانيته كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "النظر لا ريب في صحته في الجملة، وأنه إذا كان في دليل أفضى إلى العلم بالمدلول، وإذا كان في آيات الله أفضى إلى الإيمان به الذي هو رأس العبادة"⁽³⁾.

وقد تحدثت في هذا الفصل عن أربع نقاط هي:

أ- اشتمال الآيات القرآنية الكونية على دليلي الخلق والعناية.

ب- آية السموات والأرض.

ج- آية الشمس والقمر والليل والنهار.

د- آية الرياح والسحاب والمطر والنبات.

ولم أذكر في هذا الفصل جميع ما ورد في القرآن من الآيات الكونية؛ لأن استقراءها يجعل الموضوع طويلاً جداً، والغرض هو التنبيه على الاستدلال بهذا النوع من الآيات، فرأيت الاكتفاء بما يدل على المقصود، وفيما يلي الكلام على هذه النقاط مرتباً.

اشتمال الآيات القرآنية الكونية على دليلي الخلق والعناية

1 - ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ص: 357.

2 - ينظر: الرسالة التدمرية، ص: 4.

3 - انظر: الفتاوى 47/2.

أ- اشتمال الآيات القرآنية الكونية على دليل الخلق والعناية

مدخل

إذا نظرنا إلى الآيات القرآنية الكونية نرى أنها تنبئ إلى دليلي الخلق والعناية في الكون، وهما دليلًا للشرع، وقد يكون الدليلان معًا في الآية الواحدة، فأيات القرآن:

أ- إما أن تتضمن التنبيه على دليل الاختراع.

ب- وإما أن تتضمن التنبيه على دليل العناية.

ج- وإما أن تتضمن التنبيه على الدليلين السابقين معًا⁽¹⁾.

وهذان الدليلان ترد عليهما شبهتا الطبيعة والصدفة، وفيما يلي بيان كل دليل ورد الشبهة الواردة عليه.

1- دليل الخلق

ويسمى دليل الإبداع أو الاختراع وهو مبني على أصلين:

أ- أن الموجودات مخترعة.

ب- كل مخترع لا بد له من مخترع⁽²⁾.

ويعتمد هذا الدليل على إثارة الفكر للتعرف على خالق الموجودات جميعها والاستدلال بذلك على وحدانيته تعالى، وهو أول دليل تلفت الآيات النظر إليه، كقوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وُلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانُونَ، بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، البقرة: 116-117، وقوله تعالى: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}، الجاثية: 3-4.

وملخص هذا الدليل أن كل ما في الكون مخلوق، والمخلوق لا بد له من خالق؛ لأنه يستحيل أن يكون خلق من غير خالق، ولهذا كان كل رسول يقول لقومه: {أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، إبراهيم: 10.

وقد كان المشركون يؤمنون بهذا الدليل من حيث دلالاته على توحيد الربوبية ولا يؤمنون بدلالاته على توحيد الألوهية. قال تعالى عنهم: {وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاسْخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}، العنكبوت: 61.

وقال تعالى: {وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}، العنكبوت: 63.

وقد أقام القرآن الحجة عليه بهذا التوحيد توحيد الربوبية ليكون موصلاً لهم لتوحيد الألوهية، حيث يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، البقرة: 21، وقال تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}، المزل: 9، والمعنى: كما أنه المتفرد بربوبية المشرق والمغرب وربوبية السموات والأرض وليس لذلك رب سواه، فذلك ينبغي أن لا يتخذ إله سواه³.

وكذلك لما أقسم سبحانه وتعالى على الوحدانية في سورة الصافات، أتبع هذا القسم بذكر ربوبيته تعالى للسموات والأرض ومشارقتها فقال تعالى: {وَالصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا، إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ}، الصافات: 1-5.

يقول ابن القيم: فإن الإقسام كالدليل والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد.. وأقسم سبحانه بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته وقرر توحيد ربوبيته فقال: {إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} من أعظم الأدلة على أنه إله واحد ولو كان معه إله آخر لكان الإله مشاركاً له في ربوبيته كما شاركه في إلهيته، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبوداً واحداً بكونه خالقاً ورازقاً وحده⁽⁴⁾.

2- دليل العناية:

ويسمى دليل النظام أو التناسق؛ لأنه ينطلق بنا ضمن الآيات الكونية ليوصلنا إلى أن الذي نظم الكون وربط أجزاءه بحيث يكمل بعضها بعضاً وقدر كل شيء فيه تقديراً، هو الله الواحد الأحد، ومن الآيات القرآنية التي ورد فيها دليل العناية قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ، وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، الأنبياء: 31-33، وقوله تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونًا، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ، وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ

1 - انظر: تلبيس الجهمية 173/1، وانظر مناهاج الجدل ص 136-137.

2 - انظر: تلبيس الجهمية 173/1، وانظر مناهاج الجدل ص 136-137.

3 - انظر التبيان لابن القيم ص: 142.

4 - التبيان لابن القيم ص: 309.

وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}، الحجر: 19- 22، وقوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا، وَجَعَلْنَا

سُبَاتًا، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا، وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا، وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}، النبأ: 6- 16.

هذه الآيات القرآنية التي ذكرناها وآيات أخرى كثيرة تلفت نظر الإنسان لما في هذا الكون من التنظيم الدقيق والتناسق بين أجزاء الكون أقصى غايات الدقة والإتقان ليدل دلالة قاطعة على العناية التامة بهذا الكون وما فيه، وأن إلهاً واحداً قادراً هو الذي نظم كل ما فيه أحسن تنظيم⁽¹⁾.

إنه لا يوجد أي شيء في الكون إلا في محله المناسب وبالقدر المناسب، فكل ما فيه في غاية الحكمة والعناية والإتقان، والناظر لهذا الإتقان العجيب والتنظيم المدهش في كل شيء في الأرض وفي السماء وما بينهما -بحيث أن أي تغيير فيه يؤدي إلى الخلل والفساد؛ لا يسعه إلا أن يؤمن بوحدانية الله تعالى.

إننا لو سألنا عالم الفلك فإنه يبين لنا من دقائق الحسابات الفلكية وتنظيم الكواكب وأحجامها وأبعادها ما يحير العقول. ولو سألنا عالم التشريح عن جسم الإنسان، وعالم الحيوان عن أنواع الحيوان الطائر والسباح والماشي والزاحف بأشكاله وألوانه وخواصه ومعيشتة وغرائبه؛ لأسلمنا ذلك بلا شك إلى وحدانية الله.

ولو سألنا عالم النبات عن أنواعه وثماره وأوراقه وطعومه وخواصه لأجابتنا بما يدل دلالة قاطعة على وحدانية الله. ولو نظرنا إلى التنظيم الدقيق في الأرض ببجورها ويابسها وجبالها وأغوارها وسهولها وصخورها ورمالها ومعادنها وينابيعها وأنهارها وطبقاتها، لأدى بنا ذلك إلى الاعتراف بوحدانية الله.

إن العقل السليم يرفض رفضاً تاماً أن يكون أي ترتيب وتنظيم لشيء ما حدث بصورة عفوية وبطريق الصدفة، فلو دخلنا داراً أو محلاً تجارياً منظماً لأدى بنا النظر لأول وهلة إلى أن منظماً نظم هذه الدار وهذا المحل، فكيف بهذا الكون المنظم كل شيء فيه أحسن تنظيم؟

ب- آية السماوات والأرض

ذكرت آية الأرض مع آية السماء لأنهما تذكران معاً في معظم آيات القرآن الكريم ولارتباط الاستدلال بهما ببعضه البعض، وفيما يلي البيان:

1- قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، البقرة: 21- 22. في هذه الآية يطلب الله تعالى من الناس جميعاً أن يوحده ولا يشركوا به الأصنام والأنداد وهم يعلمون أنه الذي بنى السماء وفرش الأرض. قال ابن كثير: "وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له"⁽²⁾. وقال الزمخشري: "أي هو الذي خصكم بهذه الآيات العظيمة والدلائل النيرة الشاهدة بالوحدانية، فلا تتخذوا له شركاء"⁽³⁾.

2- قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، البقرة: 163 - 164.

هذه الآيات الكونية بدئت بالنص على الوحدانية، ثم نبه تعالى عباده على تفرده بالألوهية بخلق السموات والأرض وما بينهما؛ لأن من نظر إلى السماء في ارتفاعها وسعتها وإلى الأرض واستقرارها أداءه لتوحيد الله وعبادته؛ لأن في خلق السماوات والأرض دلالات واضحة لقوم يعقلون عن الله حججه وأدلتها على وحدانيته⁽⁴⁾.

قال الطبري: "وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره أهل الشرك به على ضلالهم ودعاء منه لهم إلى الأوبة من كفرهم والإنابة من شركهم، ثم عرفهم تعالى ذكره بالآية التي تتلوها موضع استدلال ذوي الألباب منهم على حقيقة ما نبههم عليه من توحيده وحججه الواضحة القاطعة عذرهم، فقال تعالى ذكره: أيها المشركون، إن جهلتم أو شككتم في حقيقة ما أخبرتكم من الخبر من أن إلهكم إله واحد دون ما تدعون ألوهيته من الأنداد والأوثان، فتدبروا حججي وفكروا فيها، فإن من حججي خلق السماوات والأرض"⁽⁵⁾. انتهى بلفظه.

1 - انظر تلبس الجهمية 1/174.

2 - انظر تفسير ابن كثير 1/58.

3 - انظر: الكشاف 1/233.

4 - انظر تفسير ابن كثير 1/201 وتفسير الطبري 2/61.

5 - تفسير الطبري 2/61.

3- قال تعالى: {وَيُؤْمِسُكُمُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}، الحج: 65، وقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}، لقمان: 10، وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}، الرعد: 2، ففي هذه الآيات نبه سبحانه وتعالى إلى وقوف السماء بغير عمد، وأن الله ممسكها بقدرته وعظيم سلطانه، وجعلها من البعد بحيث لا تتال، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، كما أن بعد ما بين كل سماء والتي تليها خمسمائة عام، ومن كان هذا خلقه فهو متعالٍ عن الشريك كما قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، النحل: 3. فأني يكون له شريك وقد خلقهما بالحق وهو التوحيد، منفردًا بخلقهما وإبداعهما من غير حاجة لأحد(1).

ج - آية الشمس والقمر والليل والنهار

ذكرت آية الشمس والقمر مع آية الليل والنهار لورودها مجتمعة في بعض المواضع من آيات القرآن الكريم:

1- قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}، يونس: 5 - 6.

في هاتين الآيتين تنبيه على أن الله وحده هو الذي خلق الشمس والقمر والليل والنهار بغير معين ولا شريك، فقوله: "هو" دلالة على الوحدانية أي هو الذي جعل الشعاع الصادر عن الشمس ضياءً وجعل الشعاع الصادر عن القمر نورًا، وفاوت بينهما بأن جعل سلطان الشمس نهارًا وسلطان القمر ليلاً وقدر القمر منازل.

فالمندبر لذلك يعلم حقيقة الوحدانية، قال الطبري: "لقوم يعلمون إذا تدبروها حقيقة وحدانية الله"(2).

وانظر كيف وضعت الشمس في مكانها الخاص بها والقمر في مكانه الخاص به ووضعت الكواكب في أمكنتها الخاصة بها ودوران ذلك كله، كما قال تعالى: {كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، الأنبياء: 33، ويس: 40. قال ابن عباس: "أي يدورون كما يدور المغزل في الفلكة" قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ولا يدور إلا بهن(3).

وانظر هذا التقدير الحكيم بأن جعل الله الليل والنهار مرتبطين بدورة الشمس، فلا يستطيع أحد إيقاف الشمس عن دورتها، أو حبس الليل والنهار عن جزء من الأرض؛ لأن الله وحده هو الذي يتولى ذلك كما قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}، الحج: 61 - 62.

يقول الطبري في تفسيره لهذه الآية: "فعلت هذا الفعل من إيلاجي الليل والنهار وإيلاجي النهار في الليل؛ لأنني أنا الحق الذي لا مثل لي ولا شريك ولا ند، وأن الذي يدعوه هؤلاء المشركون إلهًا من دونه هو الباطل الذي لا يقدر صنعة شيء بل هو المصنوع(4)".

2 - قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، فصلت: 37.

في هذه الآية يبين تعالى أن الليل والنهار والشمس والقمر من دلائل وحدانيته ووجوب عبادته، ولا تستحق الشمس أو القمر العبادة، إنما يستحق ذلك خالقها دون كل شيء سواه.

يقول ابن كثير: "يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قدير: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} أي أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضياءه وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه واختلاف سيره في سمائه؛ ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والمعاملات، ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى علي أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} أي لا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به"(5).

إذا نظرنا إلى العلم وجدناه يقول بأن مجموعتنا الشمسية ليست إلا جزءاً من أجزاء المجموعة المجرية، ومجرتنا هذه واحدة من مجرات عديدة، ويقول العلم بأن هناك نجومًا كثيرة أكبر من الشمس وأشد حرارة منها، وأن الشمس التي يستفيد من حرارتها كل نبت وحيوان درجة حرارة سطحها 12000 درجة فهرنهايت، وأن الأرض موضوعة بالمكان المناسب

1 - انظر تفسير الطبري 95/13 ومفتاح دار السعادة 196/1 وتفسير ابن كثير 2/499، 3/233.

2 - تفسير الطبري 86/11 وانظر تفسير ابن كثير 2/407.

3 - انظر تفسير الطبري 22/17 وتفسير ابن كثير 3/178.

4 - تفسير الطبري 196/17 وانظر تفسير ابن كثير 3/232.

5 - تفسير ابن كثير 102/4 وانظر تفسير الطبري 286/7 والتبيان لابن القيم ص208 ومفتاح دار السعادة 198/1-212.

لاستمرار الحياة عليها، ولو زادت درجة الحرارة أو نقصت عن حد معين قدره الله تعالى لمات كل الأحياء على سطح الأرض حرقاً أو تجمداً، وأن مسار القمر له علاقة بالمد والجزر الذي يحصل في البحار مرتين في العام، ولو كان القمر في غير هذا المسار الذي رسمه له خالقه لعم الماء جميع اليابسة وفاض عليها بحيث تصبح الحياة مستحيلة على ظهرها(1). إن هذا الخلق العظيم والتنظيم الدقيق يدل دلالة قاطعة على وحدانية الله، وأنه المستحق أن يفرد بالعبادة دون كل شيء سواه.

د - آية الرياح والمطر والنبات

ذكرت الكلام عن هذه الآيات معاً لارتباطها ببعضها ولأنه يرد في القرآن اقتران الرياح بإنزال المطر ثم إنبات المزروعات والثمار، وهي من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وفيما يلي البيان:

1- يقول تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}، الحجر: 22. في هذه الآية وصف الله تعالى الرياح بأنها لواقح؛ لأنها تلتح السحاب فتدر ماء، وتلتح الشجر فتفتح عن وأوراقها وأكمامها فبيعت الله الرياح المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، أليس ذلك آية دالة على وحدانية الله المتصرف في هذا الكون(2)؟

2- يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}، الحج: 63، ويقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ، يَقْلُبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ}، النور: 43.

هذا تنبيه من الله تعالى لعباده على آية السحاب الحامل للماء الكثير، حيث ينزل الله منه الأمطار بالحكمة البالغة بحيث لا تختلط قطرة بأخرى، ثم انظر كيف تعم الأمطار الأرض سهولها ووعورها وشعابها لينبت العشب وللأنعام وسائر الهوام ويسقي المزروعات وتنبت الأشجار ويمد البحار والأنهار والآبار، وما يزيد منه يودعه الله في الأرض ليستخرجه الناس وقت الحاجة إليه.

يقول ابن القيم: "فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقاً للعباد والدواب والطيور والذر والنمل، يسوقه رزقاً للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني فيصل إليه على شدة الحاجة والعطش، وفي الوقت كذا وكذا ثم كيف أودعه في الأرض فأخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأقوات"(3).

3- يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}، الأنعام: 95.

في هذه الآية نبهنا الله تعالى إلى أنه هو وحده الذي يشق الحب والنوى في الثرى، فتنبت منه الزروع والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها، ثم قال مشيراً إلى وحدانيته تعالى: {ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} : أي فاعل ذلك هو الله وحده لا شريك، فكيف تصرفون عن الحق وتعطلون عنه إلى الباطل بعبادتكم غير الله تعالى.

يقول الطبري: "وهذا تنبيه من الله جل ثناؤه هؤلاء العادلين به الآلهة والأوثان على موضع حجته عليهم وتعريف منه لهم خطأ ما هم عليه مقيمون من إشراك الأصنام في عبادتهم إياهم، يقول تعالى ذكره: إن الذي له العبادة أيها الناس دون كل ما تعبدون من الآلهة والأوثان هو الله الذي فلق الحب يعني شق الحب من كل ما ينبت من النبات فأخرج منه الزرع والنوى من كل ما يغرَس مما له نواة فأخرج منه الشجر..."(4).

4- ويقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُبْحاً نُبْحاً مُتْرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، الأنعام: 99.

الخضر: هو الزرع والشجر الأخضر. والمتراكب: هو الحب والثمر لأنه يركب بعضه بعضاً. والمشتبه وغير المتشابه: أي متشابه في الورق والشكل وهو مختلف في الطعم واللون.

إن التكثير في النبات والثمار وكيفية تكونها من البذرة حتى صارت زرعاً أخضر وثمرًا طيباً بعد جفافها، واختلاف ألوان الثمار وطعومها مع كونها متشابهة في الشكل والورق لا شك يؤدي لمعرفة الله ووحدانيته، ولذلك حثنا الله على النظر للثمار فقال: {انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ} فهي تدل دلالة واضحة على وحدانية الله، لذلك ذم الله تعالى المشركين

1 - انظر كتاب العلم يدعو للإيمان لكريسي موريسون ص 50-59.

2 - انظر تفسير الطبري 19/14 وتفسير ابن كثير 549/2 ومفتاح دار السعادة 200/1 والتبيان ص 206.

3 - مفتاح دار السعادة 202/1 وانظر تفسير ابن كثير 297/3.

4 - تفسير الطبري 280/7، وانظر تفسير ابن كثير 158/2.

بعد هذه الآية مباشرة فقال: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ} إلى قوله تعالى: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، الأنعام: 100 - 102.

قال الطبري في تفسيره لهذه الآية: "يا أيها الناس إذا نظرتم إلى ثمره عند عقد ثمره وعند ينعه وانتهائه، فرأيتم اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموه، علمتم أن له مدبراً ليس كمثله شيء ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد"⁽¹⁾. وقد استنكر الهدهد على قوم بلقيس سجودهم للشمس من دون الله، مستدلاً على وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة بأنه خلق الماء والنبات وأخرجه بعد أن كان مخبوءاً في السماء والأرض وجعل ذلك حجة على المخالفين⁽²⁾. حيث قال تعالى عنه: {أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، النمل: 25 - 26.

1 - تفسير الطبري 292/7 وانظر تفسير ابن كثير 159/2 ومفتاح دار السعادة 141/1.

2 - انظر تفسير ابن كثير 361/3.

الموضوع الرابع: الولاء والبراء في القرآن الكريم

مقرر سنة الثالثة كتاب وسنة - المحاضرة (04). الدكتور: مصباح موساوي

المبحث الأول: تعريف الموالاتة لغة واصطلاحاً

الموالاتة لغة: ضدّ المعادة، يقال: ولي الشيء وولي عليه ولاية بالكسر- وولاية - بالفتح. فبالكسر السلطان وهو الاسم، وبالفتح النصرة وهي المصدر. وزعم الفراء أنّ الكسر والفتح يطلق على المعنيين جميعاً، فكلّ من ولي أمرك فهو وليّ.

ويقال: هو وليّ بينّ الولاية ووال بينّ الولاية، قال ابن الأعرابي: المعنى الذي يوضحه: أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيؤاليه أو يحابيه. والموالاتة ضدّ المعادة.

وتقول: والى فلان فلاناً: إذا أحبّه وناصره.

وروى ابن سلّام عن يونس أنّ المولى له مواضع في كلام العرب، فيطلق على المولى في الدين، والمولى في العصبية، وعلى الحليف الذي انضمّ إليك فعزّ بعزك وامتنع بمنعتك، ويطلق على المعتق الذي ينتسب بنسبك، وكذا العتيق، وعلى ابن العمّ، والعمّ، والأخ، والابن، ويطلق على الناصر، وعلى المحبّ، وعلى التابع والملازم⁽¹⁾.

وقال الرّاعب: الولاء والتّوالي أن يحصل شيان فصاعداً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد، والولاية (بالكسر) النصرة، والولاية (بالفتح) تولّي الأمر، وقيل هما لغتان مثل الدلالة والدلالة، والوليّ والمولى يستعملان معاً في معنى الفاعل، أي المولى وفي معنى المفعول، أي المولى يقال للمؤمن: هو وليّ الله ولا يقال في ذلك مولى، ولكن يقال: الله تعالى وليّ المؤمنين ومولاهم، فمن الأوّل قوله سبحانه الله وليّ الذين آمنوا، (البقرة/ 257)، ومن الثاني قوله عزّ وجلّ: (وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعَمَ المولى ونعم النصير).

معنى الولي في القرآن الكريم:

ورد لفظ الولي في القرآن على أوجه عديدة منها:

أحدها: الرّب، ومنه قوله تعالى: (قُلْ أَعْبُدُوا اللهَ الَّذِي تَتَّخِذُونَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ فَأَلَيْتُمْ مَا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ شَيْئاً وَهُمْ يَكْفُرُونَ) [البقرة: 166]، وفي «الأعراف»: (وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)، وفي «حم عسق»: (م اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَيْتُمْ مَا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ شَيْئاً وَهُمْ يَكْفُرُونَ).

والثاني: الناصر، ومنه قوله تعالى في «بني إسرائيل»: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء: 111].

والثالث: الولد، ومنه قوله تعالى: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا) [مريم: 5].

والرابع: الوثن، ومنه قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) [العنكبوت: 41].

والخامس: المانع، ومنه قوله تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [البقرة: 257] وفي «المائدة»: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) [المائدة: 55].

قال الفيروزآبادي- رحمه الله تعالى:- " نفى الله الولاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (المائدة/ 51). وجعل بين الكافرين والشياطين موالاتة في الدنيا ونفى عنهم الموالاتة في الآخرة، قال تعالى في الموالاتة بينهم في الدنيا: (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)، الأعراف.

من معاني الموالاتة في القرآن الكريم:

وردت لفظ الولاية وما اشتق منها الوجوه الآتية:

1 - لسان العرب (8/ 4920 - 4926)، الصحاح (6/ 2528 - 2530)، المصباح المنير (2/ 672 - 673)، بصائر ذوي التمييز (5/ 280 - 284)، نزهة

الأعين النواظر (613).

1 - المولى: بمعنى الولد، وذلك قول زكريّا في (سورة مريم/ 5): فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يعني الولد.

2 - الولي: يعني صاحب من غير قرابة، وذلك قوله في (سورة بني إسرائيل/ 111): وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ يعني لم يكن له صاحب يتعزّز به من ذلّ، وكقوله في (سورة الكهف/ 17): (وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)، يعني: صاحباً مرشداً.

3 - الولي: يعني القرابة، وذلك قوله تعالى في (سورة فصلت/ 34): (كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)، يعني: قريباً وقال في (سورة العنكبوت/ 22): (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ)، يعني من قريب يمنعكم، يعني الكفّار.

4 - الولي: يعني الرّبّ وذلك قوله في (سورة الأنعام/ 14): (قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ تَعَالَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ الْعَظِيمَ)، يعني: ربّاً. (فاطر السّموات والأرض). وقال في (سورة يونس/ 30): (وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ)، يعني: ربهم.

5 - الولي: يعني العون، وذلك في الذين كفروا: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا)، محمد/ 11، يعني وليهم في العون لهم.

البراء لغة: مصدر قولهم: برئت منك، وهو مأخوذ من مادّة (ب ر أ) التي تدلّ على التّباعد من الشّيء ومزايلتة، ومن ذلك: البرء وهو السّلامة من السّقم، والوصف من ذلك: براء على لغة أهل الحجاز وأنا بريء منك على لغة غيرهم وقد جاءت اللّغتان في القرآن الكريم:

قال تعالى: (إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ)، (الزخرف/ 26)، وقال تعالى: (إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ)، (الحشر/ 16)، ومن قال إنّي براء لم يثنّ ولم يؤنث، ومن قال: بريء قال (في المؤنث بريئة) وفي المثنى بريئان وفي الجمع: بريئون وبراء وبراء، والبراءة تكون من العيب والمكروه ونحوهما، فقول: برئت منك ومن الدّيون والعيوب براءة وبرئت من المرض براء، وأهل الحجاز يفتحون الرّاء في الفعل والباء في المصدر فيقولون برأت براء، وبارأت شريكي إذا فارقتة.

وقال الرّاعب: أصل البرء والبراء والتبرؤ التّفصّي (التّباعد) ممّا يكره مجاورته، ولذلك قيل: برأت من المرض، ومن فلان وتبرأت وأبرأته من كذا، وبرأته.

ويقال: براء إذا تخلّص، وبراء إذا تنزّه وتباعد، وبرأ: إذا أعذر وأنذر، ومنه قوله تعالى: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)، (التوبة/ [1])، أي إعدار وإنذار، والبراء والبريء سواء.

وليلة البراء: ليلة يتبرأ القمر من الشّمس وهي أوّل ليلة من الشّهر⁽¹⁾.

البراء اصطلاحاً: البراءة هي انقطاع العصمة، يقول أبو حيّان في تفسير قوله تعالى: (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)، (التوبة/ [1])، يقال: برئت من فلان إذا انقطعت بيننا العصمة⁽²⁾.

وقال الألويسيّ في تفسير الآية الكريمة السابقة: "هي عبارة عن إنهاء حكم الأمان ورفع الخطر المترتب على العهد السابق"⁽³⁾.

وقيل: البعد والخلاص والعداوة بعد الإعدار والإنذار.

قال الشّيخ عبد الرّحمن بن سعديّ: وحيث إنّ الولاء والبراء تابعان للحبّ والبغض فإنّ أصل الإيمان أن تحبّ في الله أنبياءه وأتباعهم، وتبغض في الله أعداءه وأعداء رسله⁽⁴⁾.

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة: "على المؤمن أن يعادي في الله، ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه- وإن ظلمه- فإنّ الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية. وإذا اجتمع في الرّجل الواحد: خير وشرّ وفجور وطاعة، ومعصية وسنة، وبدعة استحقّ من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير. واستحقّ من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشرّ"⁽⁵⁾.

1 - لسان العرب (13/ 32،33).

2 - تفسير البحر المحيط (5/ 6).

3 - روح المعاني للألويسي (10/ 43).

4 - الفتاوى السعدية (1/ 98).

5 - مجموع الفتاوى (28/ 208 - 209).

1 - الموالاتة تكون لله وحده

قال تعالى: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)، (107) [البقرة].

يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَدْ يَأْمُرُ بِالشَّيْءِ، لِمَا يَعْلَمُهُ فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، ثُمَّ يَنْهَى عَنْهُ لِمَا يَرَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَيْرِ حِينَئِذٍ، فَهُوَ لَا يَبْدُلُ حُكْمًا مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُنزَلَةِ عَلَى رَسُولِهِ أَوْ يَمْحُوهُ إِلَّا جَاءَ بِحُكْمٍ أَرْفَقَ مِنَ الْحُكْمِ الْمُنسُوخِ بِالْمُكَلَّفِينَ، وَخَيْرٌ لَهُمْ فِي الْمَنْفَعَةِ أَوْ مِثْلِهِ. وَيُنَبِّهُ اللَّهُ نَبِيِّهِ ﷺ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ الْمُطْلَقُ فِي الْكَوْنِ وَمَا فِيهِ، فَيَحِلُّ مَا يَشَاءُ، وَيُحَرِّمُ مَا يَشَاءُ، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بِمَا يُرِيدُ وَلَا مُعَقَّبَ عَلَى حُكْمِهِ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِطَاعَةَ أَمْرٍ رَبِّهِمْ، وَاتِّبَاعَ رَسُولِهِ ﷺ فِي تَصَدِيقِ مَا أَخْبَرَ بِهِ.

يُنَبِّهُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهِ ﷺ إِلَى أَنَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَيْسَ لِلنَّاسِ مِنْ دُونِهِ مِنْ نَاصِرٍ، وَعَلَى الْخَلْقِ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، لَهُ أَنْ يَنْسَخَ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَيَبْطُلَهَا، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ الشَّرْعِيَّةَ، وَالْأَحْكَامَ الْخُلُقِيَّةَ قَدْ تَكُونُ فِيهَا مَصْلَحَةٌ فِي وَقْتٍ، وَتَكُونُ مَفْسَدَةً فِي وَقْتٍ آخَرَ (1).

2 - وجوب موالاتة الله ورسوله والمؤمنين

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (56)} المائدة.

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَيَقُولُ إِنَّ الَّذِينَ يَرْتَدُّونَ عَنْ دِينِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ، وَيَتَوَلَّوْنَ عَنْ نَصْرَةِ دِينِهِ، وَإِقَامَةِ شَرِيعَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَسْتَنْبِلُ بِهِمْ مَنْ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَأَشَدُّ مَنَعَةً، وَأَقْوَمُ سَبِيلًا، يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، يَتَّصِفُونَ بِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ: الْعِزَّةُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَالرَّحْمَةُ وَالتَّوَاضُّعُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يَرُدُّهُمْ رَادٌّ عَنْ إِذَاعَةِ أَمْرِ اللَّهِ، وَإِقَامَةِ حُدُودِهِ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَبِيرًا، وَاللَّهُ وَاسِعُ الْفَضْلِ، عَلَيْهِ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ فَيُعْطِيهِ، مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ فَيَحْرِمُهُ إِيَّاهُ.

يَحْتِثُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُوَالَاتَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَيَسَاعِدُونَ الْمُحْتَاجِينَ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَهُمْ دَائِمُونَ الرُّكُوعِ لِلَّهِ.

وَكُلُّ مَنْ رَضِيَ بِمُوَالَاتَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ هُوَ مُفْلِحٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ مَنْصُورٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي حِزْبِ اللَّهِ، وَحِزْبِ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، وَلَا يُغْلَبُ مَنْ يَتَوَلَّاهُمْ اللَّهُ (2).

المبحث الثالث: البراءة من عبادة الكفار

قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ [1] لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)} [الكافرون: 1- 6]

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ فُرَيْشًا دَعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَنْ يُعْطَوْهُ مَالًا فَيَكُونُ أَعْنَى رَجُلٍ بِمَكَّةَ وَيَزُوجُونَهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ وَيَطَّأُونَ عَقْبَهُ، فَقَالُوا: هَذَا لَكَ عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدُ، وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا، وَلَا تَذَكِّرْهَا بِشَرٍّ، فَإِنْ بَعْضَتْ فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً، وَلَكَ فِيهَا صَلَاحٌ قَالَ: «وَمَا هِيَ؟» قَالَ: تَعْبُدُ إِلَهَنَا سَنَةَ اللَّاتِ وَالْعُزَّى، وَتَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةَ قَالَ: «حَتَّى أَنْظَرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي»، فَجَاءَ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ (3): {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ السُّورَةَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ أَغْيَبَرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} [الزمر: 64]، {بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الزمر: 66].

1 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 113، بترقيم الشاملة آليا).

2 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 724، بترقيم الشاملة آليا).

3 - المعجم الصغير للطبراني (2/ 44) (751) وتفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (24/ 703) ضعيف.

كَانَ كُفَّارٌ قُرَيْشِي قَدْ عَرَضُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعْْبُدَ مَعَهُمُ آلِهَتَهُمْ مِنَ الْأَوْثَانِ سَنَةً، وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ رَبَّهُ سَنَةً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ. وَفِيهَا يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِكُفَّارِ قُرَيْشٍ.

إِنِّي لَا أَعْبُدُ الْأَصْنَامَ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا أَنْتُمْ لَأَنَّهَا حِجَارَةٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَا تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

وَلَا أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ إِلَهِي الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ وَهُوَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَمُوجِدُهُ، وَمُدَبِّرُ الْأَمْرِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

المبحث الرابع: البراءة من المشركين والكافرين

قال تعالى: {بِرَاءةً مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2) وَأَدَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ (3) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُصُواكُمْ سَيِّئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)} [التوبة: 1- 5]

كَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَكُنْ الصَّحَابَةُ التَّسْمَلَةَ فِي أَوْلِيهَا، اقْتِدَاءً بِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ إِنْ كَانَتْ تَابِعَةً لِسُورَةِ الْأَنْفَالِ أَوْ أَنَّهَا سُورَةٌ مُسْتَقْلَةٌ.

وَأَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ أُرْسِلَ الرَّسُولُ ﷺ أَبَا بَكْرٍ أَمِيرًا لِلْحَجِّ، وَاتَّبَعَهُ بَعْلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِيَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ سُورَةَ التَّوْبَةِ، وَأَنْ يَطْلُبَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ لَا يَحْجُوا بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا.

وَيُعَلِّمُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ وَمُتَحَرِّرَانِ مِنَ الْعُهُودِ، الَّتِي التَزَمَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ.

المبحث الخامس: تحريم موالاة الآباء والأقرباء إذا استحَبوا الكفر على الإيمان

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (23) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24)} [التوبة: 23، 24]

بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ اللَّهُ تَعَالَى بَرَاءَتَهُ، وَبِرَاءَةَ رَسُولِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَذَنَهُمْ بِبَيْدِ عُهُودِهِمْ، بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا عُهُودَ لَهُمْ، عَزَّ ذَلِكَ عَلَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَبَرَّمَ مِنْهُ ضِعْفَاءُ الْإِيمَانِ، وَكَانَ مَوْضِعَ الضَّعْفِ نُصْرَةَ الْقَرَابَةِ وَالْعَصْبِيَّةِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنْ فَضَّلَ الْإِيمَانُ وَالْهَجْرَةَ وَالْجِهَادَ لَا يَتَّحِقُّ، وَلَا يَكْتَمَلُ إِلَّا بِتَرْكِ وَلَايَةِ الْكَافِرِينَ، وَإِثَارِ حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، عَلَى حُبِّ الْوَالِدِ وَالْوَالِدِ وَالْأَخِ وَالْعَشِيرَةِ، فَهِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مَوَالَاةِ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ. وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتَوَلَّاهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعِقَابِ الشَّدِيدِ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى، وَعَدَّ مَنْ يَتَوَلَّى الْكُفَّارَ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءً أَوْ إِخْوَانًا، مِنَ الظَّالِمِينَ.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ بِتَوَعُّدِ مَنْ آثَرَ حُبَّ الْقَرَابَةِ وَالْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ وَالتَّجَارَةَ وَالْأَمْوَالَ وَالْمَسَاكِينَ عَلَى حُبِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، بِأَنْ يَتَرَبَّصُوا أَمْرَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَيَنْتَظِرُوا عِقَابَهُ وَنِكَالَهُ بِهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَتِهِ سِوَاءَ السَّبِيلِ (1).

وقال ابن كثير: " أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِمُبَايَنَةِ الْكُفَّارِ بِهِ، وَإِنْ كَانُوا آبَاءً أَوْ أَبْنَاءً، وَنَهَى عَنِ مَوَالَاةِهِمْ إِذَا (اسْتَحَبُّوا) أَي: اخْتَارُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَتَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} الْآيَةَ [المجادلة: 22].

ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَتَوَعَّدَ مَنْ آثَرَ أَهْلَهُ وَقَرَابَتَهُ وَعَشِيرَتَهُ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَقَالَ: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَحَصْلَتُمُوهَا وَحَصْلَتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ

1 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 1259، بترقيم الشاملة آليا).

كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا) أَي: تُحِبُّونَهَا لِطِيبِهَا وَحُسْنِهَا، أَي: إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ (أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا) أَي: فَانْتَظِرُوا مَاذَا يَجْلُ بِكُمْ مِنْ عِقَابِهِ وَنَكَالِهِ بِكُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: (حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (1).

المبحث السادس: النهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (51) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (52) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأُصْبِحُوا خَاسِرِينَ (53)﴾، [المائدة: 51 - 53].

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا حَارَبَتْ بَنُو قَيْنِقَاعَ تَشَبَّهَ بِأَمْرِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سَلُولٍ وَقَامَ دُونَهُمْ وَمَشَى عِبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَتَبَّرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ حِلْفِهِمْ، وَكَانَ أَحَدَ بَنِي عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ وَلَهُ مِنْ حِلْفِهِمْ مِثْلُ الَّذِي لَهُمْ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي فَلَخَعَهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَتَبَّرًا مِنْ حِلْفِ الْكُفَّارِ وَوَلَايَتِهِمْ. فَقَالَ: أَتَوَلَّى اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ مِنْ حِلْفِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَوَلَايَتِهِمْ. قَالَ: فَفِيهِ وَفِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَزَلَتِ الْقِصَّةُ² فِي الْمَائِدَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: 51] (1)

وقال الطبري معقبا: "وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ نَهَى الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا أَنْ يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَنْصَارًا وَحُلَفَاءَ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَخْبِرَ أَنَّهُ مَنْ اتَّخَذَهُمْ نَصِيرًا وَحَلِيفًا وَوَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ مِنْهُمْ فِي التَّحَرُّبِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْهُ بَرِيئَانِ."

المبحث السابع: تحريم موالاته من اتخذ ديننا هزوا

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (57) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (58)﴾ [المائدة]

يُنْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَوَالِدِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمِنَ الْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الْمُطَهَّرَةَ، هُزُوعًا يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا، وَيَعْدُونَهَا نَوْعًا مِنَ اللَّعِبِ، وَيَتَمَنَّوْنَ زَوَالَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ، وَبِأَلَّا يَتَّخِذُوا هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ أَوْلِيَاءَ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِشَرَعِ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا.

وَهُؤُلَاءِ الْأَعْدَاءُ يَسْخَرُونَ مِنَ الْأَذَانِ، وَمِنَ الصَّلَاةِ، وَمِنَ الْعِبَادَةِ، وَيَتَّخِذُونَهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا وَسُخْرِيَةً، لِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ مَعْنَى الْعِبَادَةِ، وَلَا مَعْنَى شَرَعِ اللَّهِ، وَالصَّلَاةُ أَكْرَمُ شَيْءٍ وَأَفْضَلُهُ لِمَنْ يَعْقِلُ وَيَعْلَمُ⁽³⁾.

المبحث الثامن: النهي عن اتخاذ الكفار أولياء

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28]

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "كَانَ الْحَجَّاجُ بْنُ عَمْرٍو حَلِيفَ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَابْنِ أَبِي الْحَقِيقِ، وَقَيْسِ بْنِ زَيْدٍ، قَدْ بَطَنُوا بِنَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ لِيَقْتَنِبُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ رِفَاعَةُ بْنُ الرَّافِعِ بِنُ الْمُنْذِرِ بْنِ زُبَيْرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ، وَسَعْدُ بْنُ حَنِيْمَةَ لِأَوْلِيَاكَ النَّفَرِ: اجْتَنِبُوا هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ وَاحْذَرُوا لِرُؤْمِهِمْ وَمُبَاطَنَتِهِمْ، لَا يَفْتَنُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ، فَأَبَى أَوْلِيَاكَ النَّفَرِ إِلَّا مُبَاطَنَتَهُمْ وَلِرُؤْمِهِمْ⁽⁴⁾، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 28] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284]."

1 - تفسير ابن كثير ت سلامة (4/ 121).

2 - تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا (4/ 1155) (6506) حسن.

3 - أيسر التفاسير لأسعد حومل (ص: 727، بترقيم الشاملة آليا).

4 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (5/ 316) فيه جهالة

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 28] قَالَ: نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَلَاطِفُوا الْكُفَّارَ، وَيَتَّخِذُوهُمْ وَلِيَّةً مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْكُفَّارُ عَلَيْهِمْ ظَاهِرِينَ، فَيُظْهِرُونَ اللَّطْفَ وَيَخَالِفُونَهُمْ فِي الدِّينِ، وَذَلِكَ (1) قَوْلُهُ {إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران: 28].

وَعَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 28] «إِلَّا مُصَانَعَةً فِي الدُّنْيَا وَمُخَالَفَةً» (2).

وَعَنْ الرَّبِيعِ، فِي قَوْلِهِ: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 28] إِلَى: {إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران: 28] قَالَ: قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: «التَّقِيَّةُ بِاللِّسَانِ وَالْيَسَّ بِالْعَمَلِ» (3).

المبحث التاسع: تحريم موالاته المغضوب عليهم

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} (13) سورة الممتحنة.

بَعْدَ أَنْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مُوَادَّةِ الْمُشْرِكِينَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، عَادَ تَعَالَى فَكَّرَ هَذَا النَّهْيَ فِي آخِرِهَا فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَا تَوَلَّوْا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَاسْتَحَقُّوا الطَّرْدَ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَصْدِقَاءَ لَكُمْ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِمَا يَضُرُّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ لَأَنَّ الْكُفَّارَ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ لِعِنَادِهِمْ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَتَكْذِيبِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ .. كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ بَعَثِ مَوْتَاهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بِبَعْثِ وَلَا حَسْرِ وَلَا حِسَابٍ (4).

" يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنِ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي آخِرِ "هَذِهِ السُّورَةِ" كَمَا نَهَى عَنْهَا فِي أَوَّلِهَا فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} بِعَيْنِي: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَسَائِرَ الْكُفَّارِ، مِمَّنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُ وَاسْتَحَقَّ مِنَ اللَّهِ الطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ، فَكَيْفَ تَوَلَّوْا لَهُمْ وَتَتَّخِذُوهُمْ أَصْدِقَاءَ وَأَخْلَاءَ وَقَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ، أَي: مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا فِي حُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَوْلُهُ: {كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} فِيهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ الْأَحْيَاءُ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ أَنْ يَجْتَمِعُوا بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بِبَعْثِ وَلَا نُشُورًا، فَقَدْ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ مِنْهُمْ فِيمَا يَعْتَقِدُونَهُ.

قَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ} إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، يَعْنِي مَنْ مَاتَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَقَدْ يَئِسَ الْأَحْيَاءُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَرْجِعُوا إِلَيْهِمْ أَوْ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

المبحث العاشر: تحريم اتخاذ بطانة من دون المؤمنين

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عِلْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)}، (آل عمران).

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكُفَّارِ وَالْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ بَطَانَةً وَخَوَاصَّ لَهُمْ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، يُطْلَعُونَهُمْ عَلَى سِرِّهِمْ، وَمَا يُضْمِرُونَ لِأَعْدَائِهِمْ. لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَأْلُونَ جُهْدًا، وَلَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْ عَمَلٍ فِيهِ إِيْذَاءٌ وَإِضْرَارٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَهُمْ يَتَمَنُّونَ وَفُوعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الضِّيقِ وَالْمَشَقَّةِ.

وَلَقَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ وَالْعَدَاوَةَ فِي أَفْوَاهِهِمْ بِمَا يَظْهَرُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنْ كَلِمَاتِ الْحَقْدِ، وَصُدُورُهُمْ تُخْفِي حَقْدًا أَكْبَرَ، وَبُغْضًا أَعْظَمَ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى الدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَةَ الَّتِي يُعْرِفُ بِهَا الْوَلِيَّ مِنَ الْعَدُوِّ.

المبحث الحادي عشر: البراءة ممن يتولى غير الله ورسوله ﷺ

1 - تفسير ابن أبي حاتم، الأصيل - مخرجا (2/ 628) (3375) حسن

2 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (5/ 317) صحيح مقطوع

3 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (5/ 318) حسن.

4 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 5041، بترقيم الشاملة آليا).

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سِوَاءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَتَّقُوكُمْ يُكَفِّرُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيُبْسِطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ نَتَفَعَّكَمُ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (4) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (5) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (6) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (7) لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9) [الممتحنة].

هذه الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وكان حاطب من أهل بدر، هاجر من مكة، وترك فيها ماله وولده، ولم يكن هو من قريش. فلما أراد الرسول ﷺ فتح مكة دعا ربه الله أن يعمي الأخبار عن قريش، حتى يأخذهم على حين غرة، فكتب حاطب كتاباً إلى قريش يعرفهم بعزم الرسول ﷺ على غزوهم، وأرسله مع امرأة ليتخذ عندهم يداً. وأعلم الله تعالى رسوله بالكتاب، فأرسل الرسول علياً والزبير، وأمرهما بالذهاب إلى الروضة خاخ ليأتيها بالكتاب من المرأة، فلما جآها طلبا منها الكتاب فأنكرته، فهدها بتجربتها من ثيابها لتفتيشها، فأخرجت الكتاب من صفاير شعرها.

وسأل الرسول حاطباً عن الكتاب فاعترف وقال للرسول إنه لم يفعل ذلك كُفراً، ولا ارتداداً عن الإسلام، وإنما ليتخذ به يداً عند قريش يحمي بها أهله وولده وماله. فقال الرسول للصحابة إنه صدقكم. وقال عمر بن الخطاب دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال الرسول: إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

ويأمر الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بأن لا يتخذوا الكفار أعواناً وأنصاراً لهم يبلعونهم أخبار الرسول التي لا ينبغي لأعدائه أن يطلعوا عليها، وقد كفر هؤلاء الكفار بالله وبرسوله وكتبابه، فكيف بكم بعد هذا تتخذونهم أنصاراً تسرون إليهم بما ينفعهم، ويضرون الرسول والمسلمين، وقد أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كرها بالتوحيد، وإخلاص العبادة لله، ولم يكن لهم ذنب يؤخذون عليه غير ذلك.

فإن كنتم، يا أيها المؤمنون، قد خرجتم مجاهدين في سبيلي، وابتغاء مَرْضَاتِي، فلا تولوا أَعْدَائِي، وَمَنْ يَفْعَلْ هَذِهِ الْمُؤَالَاةَ، وَيُقْسِرِ سِرَّ الرَّسُولِ لِأَعْدَائِهِ، فَقَدْ حَادَ عَنْ قَصْدِ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى الْجَنَّةِ.

إِنْ ظَفَرَ بِكُمْ هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ، الَّذِينَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ، يُظْهِرُوا لَكُمْ عَدَاوَتَهُمْ، وَيَمْدُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِمَا يَسُوؤُكُمْ: يُقَاتِلُوكُمْ وَيَسْتَمُونَكُمْ وَيَتَمَنُونَ لَوْ تَكْفُرُونَ بِرَبِّكُمْ فَتَكُونُوا عَلَى مِثْلِ دِينِهِمْ، فَكَيْفَ تُسِرُّونَ إِلَى هَؤُلَاءِ بِالْمَوَدَّةِ وَهَذِهِ هِيَ حَالُهُمْ؟ ..

وَيُرِدُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ الَّذِي اعْتَدَرَ بِرَغْبَتِهِ فِي الْمَحَافَظَةِ عَلَى أَوْلَادِهِ وَأَمْوَالِهِ فِي مَكَّةَ، بَأَنَّ الْأَقْرَابَ وَالْأَوْلَادَ، الَّذِينَ تُؤَالُونَ الْكُفَّارَ مِنْ أَجْلِهِمْ، لَنْ يَنْفَعُوكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَنْ يَدْفَعُوا عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهُ سَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَقْرَابِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ. وَيَذْهَلُ كُلُّ وَاحِدٍ عَمَّنْ سِوَاهُ، وَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ الْعِبَادُ.

المبحث الثاني عشر: تولي الكفار بعضهم بعضا

قال تعالى: {لِعَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ لِبُسِّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (79) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبُسِّ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (80) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (81) [المائدة: 78 - 81]

لَعَنِ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الزُّبُورِ وَالْإِنْجِيلِ، فَقَدْ لَعَنَ دَاوُدُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَنْ اعْتَدَى مِنْهُمْ فِي السَّبْتِ، أَوْ لَعَنَ الْعَاصِينَ الْمُعْتَدِينَ مِنْهُمْ عَامَّةً، وَكَذَلِكَ لَعَنَهُمُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، وَسَبَّبَ ذَلِكَ اللَّعْنِ هُوَ تَمَادِيهِمْ فِي الْعَصِيَانِ، وَتَمَرُّدُهُمْ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، وَتَمَادِيهِمْ فِي الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ (بِمَا كَانُوا يَعْتَدُونَ)

فَقَدْ كَانُوا لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنِ مُنْكَرٍ يَقْتَرِفُهُ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الثُّبُوحِ وَالصَّرَرِ. وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ هُوَ حِفَاظُ الدِّينِ، وَسِيَاجُ الْفَضَائِلِ وَالْأَدَابِ، فَإِذَا تَجَرَّ الْمُسْتَهْتَرُونَ عَلَى إِظْهَارِ فِسْقِهِمْ وَفُجُورِهِمْ، وَرَأَتْهُمُ الْغَوَاةَ مِنَ النَّاسِ قَلَدُوهُمْ فِيهِ، وَزَالَ فُبْحُهُ مِنْ نَفْسِهِمْ، وَصَارَ عَادَةً لَهُمْ، وَزَالَ سُلْطَانُ الدِّينِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَتَرَكْتَ أَحْكَامَهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى فَسْوِ الْمُنْكَرَاتِ فِيهِمْ.

وَيُقَبِّحُ اللَّهُ تَعَالَى سُوءَ فِعْلِهِمْ، وَيَذُمَّهُمْ عَلَى اقْتِرَافِ الْمُنْكَرَاتِ، وَإِصْرَارِهِمْ عَلَيْهَا وَسُكُوتِ الْآخَرِينَ عَنْهَا، وَرِضَاهُمْ بِهَا.

وَتَرَى يَا مُحَمَّدُ كَثِيرًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَيَحَالِفُونَهُمْ عَلَيْكَ، وَيَحْرَضُونَهُمْ عَلَى قِتَالِكَ، وَأَنْتَ تُوْمِنُ بِاللَّهِ، وَبِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَتَشْهَدُ لَهُمْ بِصِدْقِ الرِّسَالَةِ، وَأَوْلَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِ وَلَا رَسُولٍ، وَلَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَوْلَا اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَتَزْيِينُ الشَّيْطَانِ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ، مَا فَعَلُوا ذَلِكَ، فَبِئْسَ مَا قَدَّمُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ فِي آخِرَتِهِمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي اسْتَوْجِبَتْ سَخَطَ اللَّهِ، وَعَظِيمَ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ، وَسَيُجْزَوْنَ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ، وَسَيُحْيِطُ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَلَا يَجِدُونَ عَنْهُ مَصْرِفًا، وَيَخْلُدُونَ فِي النَّارِ أَبَدًا.

وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ، الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ الْكَافِرِينَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، يُؤْمِنُونَ بِالنَّبِيِّ الَّذِي يَدْعُونَ اتِّبَاعَهُ (وَهُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ)، وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالنَّبِيَّاتِ، لَمَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ الْكَافِرِينَ مِنْ عَابِدِي الْأَوْثَانِ، أَوْلِيَاءَ وَأَنْصَارًا، وَلَكَأَنْتَ عَقِيدَتُهُمُ الدِّينِيَّةَ صَدَّتْهُمْ عَنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مُتَمَرِّدُونَ فِي النِّفَاقِ، خَارِجُونَ عَنِ حَظِيرَةِ الدِّينِ، وَلَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْجَاهَ وَالرِّيَاسَةَ، وَيَسْعَوْنَ إِلَى تَحْصِيلِهَا بِأَيِّ طَرِيقَةٍ كَانَتْ، وَبِأَيِّ وَسِيلَةٍ قَدَرُوا عَلَيْهَا⁽¹⁾.

وقال ابن كثير: "يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ، فِيمَا أَنْزَلَ عَلَى دَاوُدَ نَبِيِّهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَعَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ لِلَّهِ وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَى خَلْقِهِ.

قَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لُعِنُوا فِي التَّوْرَةِ وَ [فِي] الْإِنْجِيلِ وَفِي الزُّبُورِ، وَفِي الْفُرْقَانِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ حَالَهُمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانِهِمْ، فَقَالَ: {كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} أَي: كَانَ لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَحَدًا عَنِ ارْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ، ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ لِإِحْدَرِ أَنْ يُرَكَّبَ مِثْلَ الَّذِي ارْتَكَبُوا، فَقَالَ: {لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}

قَوْلُهُ: {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ. وَقَوْلُهُ: {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ} يَعْنِي بِذَلِكَ مَوَالِيَهُمْ لِلْكَافِرِينَ، وَتَرْكُهُمْ مَوَالِيَةَ الْمُؤْمِنِينَ، الَّتِي أَعْقَبَتْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَسْخَطَتْ اللَّهَ عَلَيْهِمْ سَخَطًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ مَعَادِهِمْ، وَلِهَذَا قَالَ: {أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}

فَسَرَ بِذَلِكَ مَا ذَمَّهُمْ بِهِ. ثُمَّ أَخْبَرَنَا أَنَّهُمْ {وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ} يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ} أَي: لَوْ آمَنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرُّسُلِ وَالْفُرْقَانِ لَمَا ارْتَكَبُوا مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ مَوَالِيَةِ الْكَافِرِينَ فِي الْبَاطِنِ، وَمُعَادَاةِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ {وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} أَي: خَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُخَالِفُونَ لِآيَاتِ وَحْيِهِ وَتَنْزِيلِهِ⁽²⁾.

وقال السعدي: "قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ} أَي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله {على لسان داوود وعيسى ابن مريم} أَي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها. {ذلك} الكفر واللعن {بما عصوا} وكانوا يعبدون} أَي: بعصيانهم لله، وظلمهم لعباد الله، صار سببا لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثالات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: {كانوا لا يتنأهون عن منكر فعلوه} أَي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضا، فيشتترك بذلك المباشر، وغيره الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجبا للعقوبة، لما فيه من المفاصد العظيمة:

1 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 748، بتريقيم الشاملة آليا).

2 - تفسير ابن كثير ت سلامة (3/ 160).

منها: أن مجرد السكوت، فعل معصية، وإن لم يباشرها الساكت. فإنه -كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكترات بها.

ومنها: أن ذلك يجرى العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدينيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدر على ما كانوا يقدر على عليه أولاً.

ومنها: أن - في ترك الإنكار للمنكر- يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية- مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله حلالاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟ "

المبحث الثالث عشر: الشيطان لا سلطان له إلا على من يتولاه

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100)﴾ النحل

" يَا مُرُّ اللَّهِ تَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ وَعِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ، عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ بِأَنْ يَسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ.

وَيُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا سُلْطَةَ لَهُ وَلَا سُلْطَانَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى ارْتِكَابِ ذَنْبٍ لَا يُؤْبَوْنَ مِنْهُ.

إِنَّمَا تَسْلُطُهُ بِالْعَوَايَةِ وَالضَّلَالَةِ يَكُونُ عَلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَهُ نَصِيرًا فَيُحِبُّونَهُ وَيُطِيعُونَهُ، وَيَسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَتِهِ، وَالَّذِينَ هُمْ بِسَبَبِ إِغْوَاهِ يُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ." (1)

" هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ: إِذَا أَرَادُوا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ، أَنْ يَسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. وَهُوَ أَمْرٌ نَدِبَ لَيْسَ بِوَاجِبٍ، حَكَى الإِجْمَاعُ عَلَى ذَلِكَ الإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ بِنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الأئمة. وَقَدْ قَدَّمْنَا الأَحَادِيثَ الأَوَارِدَةَ فِي الإِسْتِعَاذَةِ مَبْسُوطَةً فِي أَوَّلِ التَّفْسِيرِ، وَبِاللَّهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَالْمَعْنَى فِي الإِسْتِعَاذَةِ عِنْدَ ابْتِدَاءِ القِرَاءَةِ، لِئَلَّا يَلْبَسَ عَلَى القَارِئِ قِرَاءَتُهُ وَيُخْلَطَ عَلَيْهِ، وَيَمْنَعُهُ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَلِهَذَا ذَهَبَ الجُمهُورُ إِلَى أَنَّ الإِسْتِعَاذَةَ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التَّلَاوَةِ وَحِكْيَ عَنْ حَمْرَةَ وَأَبِي حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ: أَنَّهَا تَكُونُ بَعْدَ التَّلَاوَةِ، وَاحْتِجَاً بِهَذِهِ الآيَةِ.

وَنَقَلَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ المَهْدَبِ مِثْلَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا، وَمَحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ. وَالصَّحِيحُ الأَوَّلُ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى تَقَدُّمِهَا عَلَى التَّلَاوَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

المبحث الرابع عشر: حكم ولاية من لم يهاجر وبقي في بلاد الكفر والحرب

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (72) سورة الأنفال.

إِنَّ المَهَاجِرِينَ الَّذِينَ تَرَكَوا دِيَارَهُمْ، وَجَاهَدُوا مَعَ الرَّسُولِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالأَنْصَارَ الَّذِينَ آوُوا الرَّسُولَ وَنَصَرُوهُ، هُوَ لَأَمْ جَمِيعاً بَعْضُهُمْ أَوْلَى بَعْضٍ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ أَحَقُّ بِالأَخْرِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ. لِذَلِكَ أَحَى الرَّسُولُ ﷺ بَيْنَ المَهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، كُلِّ أَتْنِينَ إِخْوَانٍ فِي اللَّهِ، فَكَانُوا يَتَوَارَثُونَ بِذَلِكَ إِرْتِاقاً مُقَدِّماً عَلَى القَرَابَةِ، حَتَّى نَسَخَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِآيَةِ المَوَارِيثِ.

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا، بَلْ أَقَامُوا فِي أَمَاكِنِهِمْ فَهؤلاءِ لَا يَتَبَيَّنُ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ وَلايَةِ المُسْلِمِينَ وَنَصْرَتِهِمْ، إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى وَلايَتِهِمْ حَتَّى يُهَاجِرُوا، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ المَعَانِمِ نَصِيبٌ وَلَا فِي خُمُسِهَا إِلاَّ مَا حَضَرُوا فِيهِ القِتَالِ. وَإِذَا اسْتَنْصَرَ هُوَ لَأَمْ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا، إِخْوَانُهُ المُسْلِمِينَ فِي قِتَالِ دِينِي عَلَى عَدُوِّ لَهُمْ، فَعَلَيْهِمْ نَصْرُهُمْ، لِأَنَّهم إِخْوَانٌ فِي الدِّينِ. أَمَّا إِذَا

1 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 1999، بترقيم الشاملة آليا).

كَانَ الْإِسْتِصَارُ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مِيثَاقٌ وَمُهَادَنَةٌ إِلَى مُدَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَلَّا يَخْفِرُوا ذِمَّتَهُمْ وَلَا أَنْ يَنْقُضُوا أَيْمَانَهُمْ مَعَ الَّذِينَ عَاهَدُوهُمْ⁽¹⁾.

المبحث الخامس عشر: تحريم موالاته المنافقين

قال تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهِ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَنْ تَهْتُوا مِنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88) وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخَذُوا مِنْهُمْ وَأَقْتَلُوا حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (89) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90)} [النساء: 88 - 90]

فَمَا لَكُمْ أَصْبَحْتُمْ فِتْنِينَ فِي الْمُنَافِقِينَ، وَاخْتَلَفْتُمْ فِي كُفْرِهِمْ، مَعَ تَظَاهُرِ الْأَدِلَّةِ عَلَيْهِ، فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَخْتَلِفُوا فِي شَأْنِهِمْ، وَكَيْفَ تَقْتَرِقُونَ فِي شَأْنِهِمْ وَقَدْ صَرَفَهُمُ اللَّهُ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، بِمَا كَسَبُوا مِنْ أَعْمَالِ الشَّرِّ، وَاجْتَرَحُوا مِنَ الْمَعَاصِي، وَقَدْ أَرَكْسَهُمُ اللَّهُ، وَجَعَلَهُمْ يَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ نَاكِسِي الرُّؤُوسِ، بِسَبَبِ إِيغَالِهِمْ فِي الضَّلَالِ، وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْحَقِّ؟ وَأَنْتُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَيْسَ بِاسْتِطَاعَتِكُمْ أَنْ تُبَدِّلُوا سُنْنَ اللَّهِ، لِأَنَّ مَنْ قَضَتْ سُنُّ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ أَنْ يَكُونَ ضَالًّا عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا يُمَكِّنُ أَنْ يَصِلَ بِسُلُوكِهَا إِلَى الْحَقِّ.

وَسَبِيلُ الْفِطْرَةِ أَنْ يَرْضَى الْإِنْسَانُ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ عَلَى سُنَنِ الْعَقْلِ، وَيَتَّبِعَ مَا يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي فِيهِ مَنْفَعَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَأَكْثَرُ مَا يَصُدُّ الْإِنْسَانَ عَنِ سَبِيلِ الْفِطْرَةِ هُوَ التَّقْلِيدُ وَالْعُرُورُ وَظَنُّ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ مَا هُوَ أَكْمَلُ مِمَّا هُوَ فِيهِ، وَبِهَذَا يَقْطَعُ عَلَى نَفْسِهِ طَرِيقَ الْعَقْلِ وَالنَّظَرِ فِي النَّفْعِ وَالضَّرْرِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

وَهُوَ لَا يَفْقَهُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْغَوَايَةِ، بَلْ يَطْمَعُونَ فِي أَنْ يَكُونُوا أَمْتَالَهُمْ، وَهُمْ يَوَدُّونَ لَكُمْ الضَّلَالَةَ لِيَسْتَوُوا أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ فِيهَا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِيَشِدَّ عَدَاوَتَهُمْ وَبُغْضَهُمْ لَكُمْ، فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ وَنُصْرَاءَ وَأَصْدِقَاءَ، حَتَّى يُؤْمِنُوا وَيُهَاجِرُوا إِلَى الْبُيُوتِ السُّوْلَى، لِيُبَيِّنُوا صِدْقَ إِيْمَانِهِمْ، فَإِنْ رَفَضُوا الْهَجْرَةَ (تَوَلَّوْا) وَلَزِمُوا مَوَاضِعَهُمْ، وَأَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ فَخَذُوا مِنْهُمْ وَأَقْتَلُوا حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ، وَلَا تَوَالُوهُمْ، وَلَا تَسْتَنْصِرُوا بِهِمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ مَا دَامُوا كَذَلِكَ.

اسْتَنْتَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَوْلَاءِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أُوجِبَ قَتْلُهُمْ، حَيْثُ وَجَدَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، الَّذِينَ لَجُّوا وَانْحَازُوا إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ مُهَادَنَةٍ، أَوْ عَقْدٌ ذِمَّةٌ يَمْنَعُ قَتْلَ الْمُتَمِيمِينَ لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ، فَاجْعَلُوا حُكْمَهُمْ كَحُكْمِ هَوْلَاءِ. وَاسْتَنْتَى اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْقَتْلِ فِتْنَةً أُخْرَى مِنَ النَّاسِ جَاءَتْ إِلَى مَدْيَانَ الْحَرْبِ وَصُدُورُهُمْ ضَبَقَةٌ، وَهُمْ كَارِهُونَ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ، وَلَا يَهْوُونَ عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ مَعَكُمْ، بَلْ هُمْ لَا لَكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ، وَمِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِكُمْ أَنْ كَفَّهُمْ عَنْكُمْ، فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ، وَارَادُوا مُسَالَمَتَكُمْ فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تُقَاتِلُوهُمْ، مَا دَامَتْ حَالُهُمْ كَذَلِكَ.

وَقَالَ الرَّازِي: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَادَعَ وَفَتَّ خُرُوجِهِ إِلَى مَكَّةَ هَلَالًا بَنَ عُوَيْمِرَ الْأَسْلَمِيَّ عَلَى الْأَيْعِينَةَ وَلَا يُعِينُ عَلَيْهِ، وَعَلَى أَنْ كُلَّ مَنْ وَصَلَ إِلَى هَلَالٍ وَلَجَا إِلَيْهِ فَلَهُ مِنَ الْجَوَارِ مِثْلُ مَا لِهَلَالٍ.

وَهُوَ لَا يَكْتَلِبُ عَلَى مَنْ بَنَى هَاشِمِ الَّذِينَ خَرَجُوا يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ قُرَيْشٍ فَحَضَرُوا الْقِتَالَ وَهُمْ كَارِهُونَ، لِذَلِكَ نَهَى النَّبِيُّ عَنْ قَتْلِ الْعَبَّاسِ، وَأَمَرَ بِأَسْرِهِ⁽²⁾.

المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم فحكم بكفرهم. فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تستبهموا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم وإضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفرهم وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققت ذلك منهم {فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ} وهذا يستلزم عدم محبتهم لأن الولاية فرع المحبة.

المبحث السادس عشر: المنافقون هم الذين يتولون الكفار والفجار

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (11) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ

1 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 1233، بترقيم الشاملة آليا).

2 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 581، بترقيم الشاملة آليا).

وَلَمَّا نَصَرُوهُمْ لَيُولِيَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (12) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (13) لَا يُفَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي فُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (14) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (15) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17) {سورة الحشر

أَرْسَلَ رَسُولُ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولٍ وَعَدَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ إِلَى يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ يَعِدُونَهُمُ النَّصْرَةَ إِنْ قَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، وَالْخُرُوجَ مَعَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ إِنْ أخرجوا، وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ كَفْرَةً، وَإِخْوَانًا لِلْكَافِرِينَ مِنَ الْيَهُودِ .. ثُمَّ يُؤَكِّدُ تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ فِيمَا يَعِدُونَ بِهِ الْيَهُودَ.

وَهُمْ كَاذِبُونَ فِيمَا يَقُولُونَ، وَفِيمَا يَعِدُونَ بِهِ الْيَهُودَ مِنَ النَّصْرَةِ، وَالْخُرُوجَ مَعَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَ الْيَهُودِ إِذَا أَرَادَ الْمُسْلِمُونَ إِخْرَاجَهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَلَا يَقَاتِلُونَ مَعَهُمْ، إِنْ قَاتَلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ إِذَا قَاتَلُوا مَعَ الْيَهُودِ سَيَنْهَزِمُونَ مُتَخَلِّينَ عَنْ بَنِي النَّضِيرِ، ثُمَّ لَا يُنصِرُ اللَّهُ بَنِي النَّضِيرِ.

وَيُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى السَّبَبَ فِي عَدَمِ جُرْأَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِنضِمَامِ إِلَى الْيَهُودِ، فِي قِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ، فَيُخْبِرُ تَعَالَى: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ اللَّهِ، فَهُمْ

المبحث السابع عشر: النهي عن اتخاذ أولياء من دون الله

قال تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف:3]

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ الَّذِينَ تَنْذِرُهُمْ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ، فَهَوَ وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ الْحَقُّ فِي شَرْعِ الدِّينِ لَكُمْ، وَفَرَضَ الْعِبَادَاتِ عَلَيْكُمْ وَتَحْلِيلِ مَا يَنْفَعُكُمْ، وَتَحْرِيمِ مَا يَضُرُّكُمْ، لِأَنَّهُ الْعَلِيمُ بِمَا فِيهِ الْفَائِدَةُ أَوْ الضَّرَرُ لَكُمْ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنَ النَّاسِ، أَوْ مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِينَ يُوسِسُونَ إِلَيْكُمْ، أَوْلِيَاءَ تُؤَلِّقُونَ أَمُورَكُمْ، وَتُطِيعُونَهُمْ فِيمَا يَرُومُونَ مِنْكُمْ مِنْ ضَلَالِ التَّقَالِيدِ، وَالْإِبْتِدَاعِ فِي الدِّينِ. وَقَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ هُمُ الَّذِينَ يَتَذَكَّرُونَ وَيَتَعَطَّوْنَ (أَوْ قَلِيلًا مَّا تَتَعَطَّوْنَ بِمَا تُوعِظُونَ بِهِ) (1).

وقال الطبري: "قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ: اتَّبِعُوا أَيُّهَا النَّاسُ مَا جَاءَكُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، وَاعْمَلُوا بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ رَبُّكُمْ، {وَلَا تَتَّبِعُوا} [البقرة:168] شَيْئًا مِنْ دُونِهِ} [النساء:117] يَعْنِي: شَيْئًا غَيْرَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ رَبُّكُمْ، يَقُولُ: لَا تَتَّبِعُوا أَمْرَ أَوْلِيَانِكُمْ الَّذِينَ يَأْمُرُونَكُمُ بِالشَّرْكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَإِنَّهُمْ يُضِلُّونَكُمْ وَلَا يَهْدُونَكُمْ" (2).

المبحث الثامن عشر: الظالمون بعضهم أولياء بعض

قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (19)} [الجاثية:18،19]

لَقَدْ بَعَثَكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدُ، بَعْدَ اخْتِلَافِ أَهْلِ الْكِتَابِ، عَلَى مِنْهَاجٍ وَاضِحٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ شَرَعَهُ لَكَ، وَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْكَ مِنَ الرُّسُلِ، فَاتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ، وَلَا تَتَّبِعْ مَا دَعَاكَ الْمُشْرِكُونَ الْجَاهِلُونَ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْهَتَمِ، فَهَؤُلَاءِ لَا يَعْلَمُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ.

وهؤلاء الجاهلون لا يدفعون عنك شيئاً مما أَرَادَهُ اللَّهُ بِكَ إِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ، وَتَرَكْتَ شَرْعَ رَبِّكَ. وَالْكَافِرُونَ يَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الدُّنْيَا، وَيُظَاهِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَا يُعْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا. أَمَّا الْمُتَّقُونَ الْمُهْتَدُونَ فَإِنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُمْ يُنصِرُهُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ³.

المبحث التاسع عشر: لا ولاية بين المؤمنين والكافرين

إننا نقف مع نوح وابنه الذي ليس من أهله! إنها وقفة على معلم واضح بارز في طبيعة هذه العقيدة وفي خطها الحركي أيضاً.. وقفة على مفرق الطريق تكشف معالم الطريق..

1 - أيسر التفاسير لأسعد حومد (ص: 958، بترقيم الشاملة آليا).

2 - تفسير الطبري، جامع البيان، ط هجر (10/56).

3 - أيسر التفاسير لأسعد حومد، (ص: 4370، بترقيم الشاملة آليا).

«وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ...»

«حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا: احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ - إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ - وَمَنْ آمَنَ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ...»

«وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ -: يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا، وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ: سَأُوبِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ، قَالَ: لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِفِينَ ..»

«وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ: رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ: يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ، فَلَا تَسْأَلُنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ: رَبِّ إِنِّي أَعُودُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» ..

إن الوشيعة التي يتجمع عليها الناس في هذا الدين وشيعة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين، وتتعلق بأفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم.

إن هذه الوشيعة ليست وشيعة الدم والنسب وليست وشيعة الأرض والوطن، وليست وشيعة القوم والعشيرة، وليست وشيعة اللون واللغة، وليست وشيعة الجنس والعنصر، وليست وشيعة الحرفة والطبقة..

إن هذه الوشائج جميعها قد توجد، ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد كما قال الله سبحانه وتعالى لعبده نوح - عليه السلام - وهو يقول: «رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي» .. «يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ» ثم بين له لماذا يكون ابنه.. ليس من أهله .. «إنه عمل غير صالح» .. إن وشيعة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح: «فَلَا تَسْأَلُنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» فأنت تحسب أنه من أهلك، ولكن هذا الحسبان خاطئ. أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك، ولو كان هو ابنك من صلبك!

المبحث الرابع والعشرون: ثواب أولياء الله

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (31) نَزَّلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)} [فصلت: 30 - 32]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَأَخْلَصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَتَبَتُّوا عَلَى الْإِيمَانِ (اسْتَقَامُوا) تَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْبَشَرِ الَّتِي يُرِيدُونَهَا، وَبِأَنَّهُمْ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَفْتَدُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا خَلَفُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَزَوْجٍ وَوَلَدٍ، وَيَبَشِّرُونَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِهَا عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ.

وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُمْ يُبَشِّرُونَهُمْ: نَحْنُ كُنَّا أَوْلِيَائِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا نُسَدِّدُ خَطَاكُمْ، وَنُلْهِمُكُمْ الْحَقَّ، وَنُرْشِدُكُمْ إِلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَرِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَكَذَلِكَ نَكُونُ مَعَكُمْ فِي الْآخِرَةِ، نُؤْمِنُكُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ مِنْ وَحْشَةِ الْقَبْرِ، وَعِنْدَ النَّفْخَةِ فِي الصُّورِ، وَيَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَنُوصِلُكُمْ إِلَى جَنَاتِ الْخُلْدِ، وَإِنَّا وَاجِدُونَ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ مِنَ الْمَلَدَاتِ وَالنَّعِيمِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَتَمَنُونَ وَتَطْلُبُونَ.

وَالَّذِي أَنْزَلَكُمْ دَارَ الْكِرَامَةِ هَذِهِ هُوَ اللَّهُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(1).

يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك، تنشيطهم، والحث على الاقتداء بهم، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا} أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علماً وعملاً فلهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وجوب عداوة اليهود والمشركين وغيرهم من الكفار

1 - أسير التفاسير لأسعد حومد (ص: 4127، بترقيم الشاملة آليا).

قد دل الكتاب والسنة وإجماع المسلمين على أنه يجب على المسلمين أن يعادوا الكافرين من اليهود والنصارى وسائر المشركين، وأن يحذروا مودتهم واتخاذهم أولياء، كما أخبر الله سبحانه في كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أن اليهود والمشركين هم أشد الناس عداوة للمؤمنين.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لِقَوْمِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} إلى قوله سبحانه: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَأُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ}

المبحث السادس والعشرون: ما ترشد إليه الآيات والأحاديث الشريفة

1 - حرمة موالاته اليهود والنصارى وسائر الكافرين، قال ابن تيمية رحمه الله: " فبين سبحانه وتعالى أن الإيمان بالله والنبى وما أنزل إليه مستلزم لعدم ولايتهم، فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان؛ لأن عدم اللازم يقتضى عدم الملزوم. وقال سبحانه: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ} [المجادلة:22] فأخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يواد كافرين؛ فمن واد الكفار فليس بمؤمن، والمشابهة الظاهرة مظنة الموادة، فتكون محرمة، كما تقدم تقرير مثل ذلك." (1).

وقال ابن العربي: " نفى الله الموالاته بالكفر بين الأبناء والأبناء خاصة، ولا قربى أقرب منها، كما نفاها بين الناس بعضهم من بعض، بقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [المائدة:51]؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الْقُرْبَ قُرْبُ الْأَدْيَانِ لَا قُرْبُ الدِّيارِ وَالْأَبْدَانِ، وَمِثْلُهُ تُنْشِدُ الصُّوفِيَّةُ:

يَقُولُونَ لِي دَارُ الْأَحِبَّةِ قَدْ دَنَتْ ... وَأَنْتَ كَتِيبٌ إِنَّ دَا لَعَجِيبُ

فَقُلْتُ وَمَا تُعْنِي دِيَارُ قَرِيبَةٍ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْقُلُوبِ قَرِيبٌ (2).

2 - إن موالاته المؤمنين ومعاداة الكافرين ركن خطير في عقيدة المسلم، لا يتم إيمانه إلا به. قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة:51].

ومعاداة الكافرين التي هي ركن الإيمان بالله لا تتم إلا بالكفر بالطاغوت، قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [البقرة:256]، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء:60]، فلا بد لنا من مفاصلة الطواغيت وأعاونهم والتبرؤ منهم: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَأُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة:4].

3 - موالاته الكافر على المؤمن تعتبر ردة عن الإسلام: وقطع الموالاته والمودة شرعا بين المؤمنين وبين الكافرين في أمور الدين وقضاياه الكبرى الأساسية. ولا مانع من وجود علاقات لمصالح دنيوية تقتضيها الضرورة، بدليل ما قال الطبري في قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}: {وَمَنْ يَتَوَلَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى دُونَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ، يَقُولُ: فَإِنَّ مَنْ تَوَلَّاهُمْ وَنَصَرَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ دِينِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ، فَإِنَّهُ لَا يَتَوَلَّى مُتَوَلِّ أَحَدًا إِلَّا وَهُوَ بِهِ وَبِدِينِهِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ رَاضٍ، وَإِذَا رَضِيَهُ وَرَضِيَ دِينَهُ فَقَدْ عَادَى مَا خَالَفَهُ وَسَخَطَهُ، وَصَارَ حُكْمُهُ حُكْمَهُ" (3).

وقال ابن حزم رحمه الله: وَصَحَّ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ} [المائدة:51] إِنَّمَا هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ بَأَنَّهُ كَافِرٌ مِنْ جُمْلَةِ الْكُفَّارِ فَقَطْ - وَهَذَا حَقٌّ لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (4).

1 - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (1/ 550).

2 - أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (2/ 462).

3 - تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر (8/ 508).

4 - المحلى بالآثار (12/ 33).

لكن لا يعد موالاته استعمال اليهودي أو النصراني في عمل تجاري أو عمري أو مهني، إذا دعت الحاجة إليه (حراماً)، ولا يصح اسبتانهم (بطانة الرجل - خاصته) ولا الاستعانة بهم في الجهاد. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَيْنَتْمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَفُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَالِمُونَ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)﴾، [آل عمران: 118 - 120]

4 - وَفِي هَذِهِ آيَةٍ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْكَافِرَ لَا يَكُونُ وَلِيًّا لِلْمُسْلِمِ لَا فِي التَّصَرُّفِ وَلَا فِي النَّصْرَةِ، وَيَدُلُّ عَلَى وَجُوبِ الْبِرَاءَةِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْعَدَاوَةِ لَهُمْ: لِأَنَّ الْوَلَايَةَ ضِدُّ الْعَدَاوَةِ، فَإِذَا أَمَرْنَا بِمُعَادَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِكُفْرِهِمْ فَغَيْرُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ بِمَنْزِلَتِهِمْ. وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ كُلَّهُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ(1)، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}.

5 - موالاته الكافرين ناجمة عن ضعف الإيمان، فلذا تؤدي إلى الكفر.

6 - دل قوله: فَإِنَّهُ مِنْهُمْ أَنْ حَكَمَهُ حَكْمَهُمْ، وَهُوَ يَمْنَعُ إِثْبَاتِ الْمِيرَاثِ لِلْمُسْلِمِ مِنَ الْمُرْتَدِّ.

وهذا الحكم باق إلى يوم القيامة في قطع الموالاته، وقد قال تعالى: (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ)، [هود 113 / 11] وقال تعالى: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ)، [آل عمران 28 / 3] وقال سبحانه: (لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ)، [آل عمران 3 / 118].

وأعلن تعالى فصل الموالي للكفار عن جماعة المؤمنين، فقال: وَمَنْ يَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ أَي لَأَنَّهُ قَدْ خَالَفَ اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ كَمَا خَالَفُوا، وَوَجِبَتْ مَعَادَاتُهُمْ كَمَا وَجِبَتْ مَعَادَاتِهِمْ، وَوَجِبَتْ لَهُ النَّارُ كَمَا وَجِبَتْ لَهُمْ فَصَارَ مِنْهُمْ، أَي مِنْ أَصْحَابِهِمْ.

7 - إن مخاوف المنافقين التي أدت بهم إلى موالاته الكفار تتبدد أمام تدبير الله وتأييده ونصره، وتدمير الأعداء، وإحباط مخططاتهم، وإذلالهم.

8 - عاقبة النفاق سيئة ونهاية الكفر مريرة.

9 - ظهور حقيقة المنافقين في مرأى المؤمنين، فيتعجبون من شأنهم، قائلين لبعضهم: أهؤلاء الذين ادعوا نصرتنا بالإيمان المغلظة؟ أو قائلين لليهود على جهة التوبيخ: أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم يعينونكم على محمد؟ فالآية تحتتم قول المؤمنين لبعضهم، أو لليهود(2).

10 - إن التفريط في هذا الركن الأساسي هو الثغرة التي ينفذ منها أعداء الإسلام للقضاء على الأمة المسلمة ولخداعها وتخديرها وتوريطها في الكوارث والمصائب. قال الله تعالى: {لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة: 47].

11 - إن التفريط في هذا الركن الأساسي يؤدي إلى انحلال عقيدة المسلم، وانسلاخه منها. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 149].

12 - إننا أحوج ما نكون إلى التفريق بين أولياء الإسلام الذين يدافعون عنه، وبين أعدائه الذين يعتدون عليه، وبين المذبذبين الذين لا يعملون إلا لتحقيق مصالحهم بتوهين مقاومة الأمة وصرفها عن الميدان الحقيقي للمواجهة. قال الله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهم خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: 4]، وقال أيضاً عز من قائل: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)} [النساء: 142، 143].

الخلاصة في فوائد (الولاء والبراء)

1 - أحكام القرآن للحصص ط العلمية (2 / 555).

2 - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة (8 / 3711)

- (1) بيان صفة أولياء الله وفضائلهم المتنوّعة.
- (2) محبة الله لأوليائه المؤمنين التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون.
- (3) إن الله مع أوليائه المؤمنين وناصرهم ومؤيّدهم ومسدّدهم ومجيب دعواتهم.
- (4) إخلاص العبادة لله وحده دون غيره.
- (5) الولاء والبراء يقتضي عدم الاحتكام إلى أيّ طاغوت في أيّ حكم من الأحكام الدنيويّة أو الدنيويّة.
- (6) عدم موالاتة الكفار في أيّ حال من الأحوال ويعني ذلك: عدم التقرّب إليهم أو مودّتهم بالأقوال أو الأفعال أو النوايا، وعدم التشبّه بهم.
- (7) المؤمنون بعضهم أولياء بعض والكفرة بعضهم من بعض وهم جميعا عدوّ للمؤمنين. (1)

الخلاصة في مضار (موالاتة الكفار)

- (1) تخرج المرء من الإسلام، وتلقه بدين من والاه.
- (2) دليل على بغض الله ورسوله ودين الإسلام.
- (3) تحرم صاحبها من الجنان، وتورده النيران مخلداً فيها.
- (4) تعين على هدم الإسلام وتقويض أركانه.
- (5) تقوي الكفر والباطل.
- (6) توقع أعلى الأذى على المسلمين وعباد الله المؤمنين⁽¹⁾.

1 - نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة (8/ 3711).

الصلاة في القرآن الكريم

الدكتور: مصباح موساوي

المحاضرة (05) مقرر التفسير الموضوعي، سنة ثالثة كتاب وسنة،

المبحث الأول: الصلاة في اللغة والاصطلاح

الصلاة لغة: اسم مصدر، من قولهم: صلى صلاة، وهو مأخوذ من مادة: (ص ل وي) التي تدل على أمرين: الأول: النار وما أشبهها من الحمى.

والثاني: جنس من العبادة.

يقول ابن فارس في مقاييس اللغة، 30/3: فأما الأول: فقوله: صليت العود بالنار، والصلاة: ما يصطلى به وما يذكر به النار ويوقد.

وأما الثاني: فالصلاة هي الدعاء، يقول المصطفى ص: (إذا دعيت أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطرا فليأكل، وإن كان صائما فليصل)، أخرجه مسلم، باب: الأمر بإجابة الداعي، برقم: 1431، أي: فيدع لهم بالخير والبركة. والصلاة من الله الرحمة، وصلاة الله على رسوله ص رحمته له وحسن ثنائه عليه. والصلاة من الملائكة دعاء واستغفار.

الصلاة في الاصطلاح: قال الجرجاني في التعريفات: الصلاة في الشريعة عبارة عن أركان مخصوصة، وأذكار معلومة بشرائط محصورة في أوقات مقدرة⁽¹⁾.

المبحث الثاني: وجوه ونظائر الصلاة في القرآن الكريم

للصلاة عشرون وجها في القرآن الكريم:

الوجه الأول: بمعنى الصلوات الخمسة بعينها: قال تعالى: (ويقيمون الصلاة)، البقرة: 3.

قال ابن الجوزي في منتخب قرة العيون النواظر، ص: 161: "وكذلك كل صلاة قرنت بذكر الزكاة".

الوجه الثاني: بمعنى الدعاء: قال تعالى: (وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم)، التوبة: 103.

الوجه الثالث: بمعنى الاستغفار: قال تعالى: (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم)، التوبة: 99، أي: دعاء الرسول واستغفاره.

الوجه الرابع: بمعنى المغفرة: قال تعالى: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)، البقرة: 157. قال ابن الجوزي: فصلاة الله تعالى المغفرة.

الوجه الخامس: بمعنى الرحمة: قال تعالى: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة)، البقرة: 157.

قال البيهقي: صلوات: أي رحمة، فإن الصلاة من الله رحمة، (ورحمة) ذكرها الله تأكيدا، وجمع الصلوات أي رحمة بعد رحمة.

الوجه السادس: بمعنى القراءة: قال تعالى: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا)، الإسراء: 110.

أخرج البخاري، سورة الإسراء، برقم: 4722، ومسلم كتاب الصلاة، باب التوسط إذا خاف من الجهر مفسدة، برقم: 447، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت ورسول الله ص مختلف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ص: (ولا تجهر بصلاتك)، أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، (ولا تخافت بها) عن أصحابك فلا تسمعهم، (وابتغ بين ذلك سبيلا).

الوجه السابع: بمعنى صلاة الجماعة: قال تعالى: (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا)، المائدة: 58.

الوجه الثامن: بمعنى صلاة الجمعة: قال تعالى: (يأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة)، الجمعة: 9.

الوجه التاسع: بمعنى صلاة العيد: قال تعالى: (قد أفلح من تركي وذكر اسم ربه فصلي)، الأعلى: 14، 15.

الوجه العاشر: بمعنى صلاة العصر: قال تعالى: (تحبسونهما من بعد صلاة العصر)، المائدة: 106.

الوجه الحادي عشر: بمعنى صلاة الجنائز: قال تعالى: (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا)، التوبة: 84.

1 - ينظر: التعريفات، الجرجاني، ص: 134.

الوجه الثاني عشر: بمعنى صلاة السفر: قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (١٠١)، النساء: 101.

الوجه الثالث عشر: بمعنى صلاة الخوف: قال تعالى: (وإذا كنت فيهم فأقمت الصلاة)، النساء: 102.
الوجه الرابع عشر: بمعنى صلاة الأمم الماضية: قال تعالى: (واجعلني مباركا أين ما كنت وأوصني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا)، مريم: 31.

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، يونس: 87.

وقال تعالى: (ونادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب)، آل عمران: 39.

الوجه الخامس عشر: بمعنى الإسلام: قال تعالى: (فلا صدق ولا صلي)، القيامة: 31،

الوجه السادس عشر: بمعنى الدين: قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُوتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيهِ آمْرَانَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾، هود: 87.

الوجه السابع عشر: بمعنى مواضع الصلاة وبيوتها أو الكنائس: قال تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومسجد يذكر فيها اسم الله كثيرا)، الحج: 40.

الوجه الثامن عشر: بمعنى صلاة المشركين البدعية: قال تعالى: (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)، الأنفال: 35.

الوجه التاسع عشر: بمعنى صلاة المنافقين: قال تعالى: (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون)، الماعون: 4، 5.

الوجه العشرون: بمعنى صلاة جميع المخلوقات: قال تعالى: (ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطيور صفات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون)، النور: 41.

المبحث الثالث: الألفاظ المستعملة في معنى الصلاة

أولا: سميت قياما: لقوله تعالى: (قم الليل إلا قليلا)، المزمّل: 2، وقال تعالى: (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه)، المزمّل: 20، وقوله: (وقوموا لله قانتين)، البقرة: 28، وقوله: (وكانت من القانتين)، التحريم: 12، وقوله: (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا)، النحل: 120.

ثانيا: سميت قراءة: لقوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِ الشَّمْسِ إِلَىٰ عَسَىٰ آيَاتٍ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾، الإسراء: 78.

ثالثا: وسميت ركوعا: لقوله تعالى: (واركعوا مع الراكعين)، البقرة: 43، وقوله تعالى: (وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون)، المرسلات: 48.

رابعا: سميت سجودا: لقوله تعالى: (وتقلبك في الساجدين)، الشعراء: 219، وقال تعالى: (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين)، الحجر: 97، 98.

خامسا: وسميت ذكرا: لقوله تعالى: (فإذا أمنتم فأذكروا الله)، وقوله تعالى: (كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون)، البقرة: 239، وقوله تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله)، النور: 37، وقال تعالى: (يأبها الذين ءامنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله)، المنافقون: 9، وقال تعالى: (فاسعوا إلى ذكر الله)، الجمعة: 9، وكقوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: (إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي)، ص: 32، يعني صلاة العصر وحدها، ينظر: الوجوه والنظائر: 219.

سادسا: وقد يعبر عن الصلاة بلفظ الاستغفار: لقوله تعالى: (وبالأسحار هم يستغفرون)، الذرايات: 18، وقوله تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)، الأنفال: 3، يعني: وهم يصلون⁽¹⁾.

ثامنا: وقد يطلق القرآن على الصلاة لفظ القنوت: لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيَّتْ ءَأَنَاءَ آئِيلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، الزمر: 9.

تاسعا: وقد يطلق القرآن على الصلاة اسم الحسنات: لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾، هود: 114.

العاشر: وقد يعبر القرآن عن الصلاة بلفظ التسبيح: لقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾، الروم: 17 - 18.

قال البغوي: وقيل معناه: صلوا لله (حين تمسون) أي تدخلون في المساء، وهو صلاة المغرب والعشاء، (وحين تصبحون، أي تدخلون في الصباح، وهو صلاة الصبح، (وله الحمد في السموات والأرض)، قال ابن عباس: يحمده أهل السماوات وأهل الأرض ويصلون له، (وعشيا)، أي: صلوا لله عشيا وصلاة العصر، (وحين تظهرون)، تدخلون في الظهر، وهو الظهر، قال نافع بن الأزرق لابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم، وقرأ هاتين الآيتين، وقال: جمعت الآية الصلوات الخمسة ومواقبتها⁽²⁾.

أحد عشر: وقد يطلق القرآن على الصلاة لفظ الحمد: لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾، الروم: 18، فسرهما ابن عباس بالصلوات الخمس⁽³⁾.

الثاني عشر: وقد يعبر عن الصلاة بلفظ الدعاء: لقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۗ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾، الكهف: 28. ومعنى قوله تعالى: (يدعون ربهم)، قال ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما: الصلاة المكتوبة، وقال مجاهد: هي الصلوات الخمس.

وروي عن مقاتل: أن الصلاة كانت يومئذ ركعتين بالعادة وركعتين بالعشي، ثم فرضت الصلوات الخمس بعد ذلك⁽⁴⁾.

المبحث الرابع: حديث القرآن عن الصلاة وبيان منزلتها ومكانتها

وفيه ستة مطالب

المطلب الأول: أهمية الصلاة وعظم شأنها.

وفيه عشرة فروع:

الفرع الأول: التأكيد على فرضها على جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام:

إن من أوضح الأدلة على ذلك ما جاء في سورة مريم بعد أن ذكر جملة من الأنبياء ووصفهم نبييا نبيا، ثم عقب على من خالفوا هؤلاء الأنبياء الذين كانوا يحافظون على الصلاة، وبأن من جاء بعدهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِم

آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً ﴿٥٩﴾، مريم: 58 - 59.

1 - ينظر: الوجوه والنظائر، 104، وجامع البيان، 208/3، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، 20/2.

2 - ينظر: معالم التنزيل، 1004.

3 - ينظر: الوجوه والنظائر، 176.

4 - ينظر: زاد المسير، 440 باختصار.

وحكى عن إبراهيم عليه السلام بأن فرض عليه الصلاة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٦١﴾﴾ الحج: ٢٦.

كما افترضها على إسماعيل عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكوة وكان عند ربه مرضياً ﴿٥٥﴾﴾ مريم: 54 - 55.

كما افترضها على إسحاق وذريته: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة وكانوا لنا عبيدين ﴿٧٧﴾﴾ الأنبياء: 72 - 73.

وفي قصة زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ آل عمران: ٣٩.

وحكى الله سبحانه عن تعظيم داود عليه السلام للصلاة، وأنه لما أصاب الخطيئة وأراد التوبة لم يجد لتوبته مفرعاً إلا الصلاة، فقال عنه: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْمَتِكَ إِلَى تَغَاضِيهِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٤٤﴾﴾ ص: ٢٤. ﴿رُدُّوهُا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ ص: ٣٣.

وحكى عن ابنه سليمان عليه السلام لما أشغلته الخيل عن صلاة العصر، وكشف عراقيها قال الله عنه: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ ﴿٣٣﴾﴾ رُدُّوهُا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ ص: 32 - 33. ومما يدل على تعظيم قدر الصلاة، ومباينتها لسائر الأعمال إيجابه إياها على أنبيائه ورسله، واختياره عن تعظيمها إياها، فمن ذلك أنه جل وعز قرب موسى نجياً وكلمه تكليماً، فكان أول ما افترض عليه بعد افتراضه عليه عبادته أن فرض عليه الصلاة: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ طه: 13 - 14.

وما حكاه عن عيسى عليه السلام حين تكلم في المهدي صبياً أنه قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ مريم: 30 - 31.

الفرع الثاني: التنصيص على أنها أول فريضة بعد الإخلاص بالعبادة لله عز وجل

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾﴾ البينة: 5.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ التوبة: 5.

الفرع الثالث: التنصيص على وجوبها في وقتها

قال المروزي: ثم وكدها الله في الوجوب بفرضها بنص التنزيل فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعُودًا وَعَلَى خُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٣﴾﴾ النساء: 103.

قال: كتبا واجبا، وروي ذلك عن الحسن البصري، وعن زيد بن أسلم: كلما مضى وقت جاء وقت. ينظر: تعظيم الصلاة، 38.

المطلب الرابع: الوعيد على من أضاعها، وتوبيخه تعالى الكافر على تركها

ومن تعظيم القرآن لقدر الصلاة أن الله عز وجل توعد بالعذاب من أضاعها، أو سها عنها فصلاها في غير وقتها: ﴿خَلَفَ مِنْ

بَعِيهِمْ خَلْفًا أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُوتَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾﴾ مريم: 59.

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ الماعون: 4 - 5.

قال المروزي: وحكى الله عن الكفار أنهم لما سئلوا بعد دخولهم النار فقال لهم: ﴿مَا سَأَلَكُمُ فِي سَفَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ المدثر: 42 - 43. فلم يذكرنا شيئا من الأعمال عذبوا عليها قبل تركهم الصلاة.

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمُ ءَأْمُولَكُمْ وَلَا ءَأَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ءَمَنَ يَفْعَلُ ذَلِكَ ءَأَوْلَاتِكُمْ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ المنافقون: 9، قال الضحاك: عن الصلوات الخمس. ينظر: تعظيم الصلاة، ص: 44. ووبخ الله تعالى الكافر، حيث لم يضم إلى التصديق شيئا غير الصلاة، فالكذب ضد الصلاة، والتولي ترك الصلاة وغيرها من الفرائض: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾﴾ القيامة: 31 - 32، ويقال: إنها نزلت في أبي جهل. ينظر تعظيم الصلاة، ص: 45.

ومنها توبيخ كفار قريش حيث كان رسول الله ص يدعوهم وهم لا يجيبون، وذكر الركوع عبارة عن جميع الصلاة وهذا قول الجمهور، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا لَمْ يَكْتُمِبْنَ ﴿٤٩﴾﴾ المرسلات: 38 - 39. ينظر: المحرر الوجيز، 1937.

الفرع الخامس: مدح الله تعالى المصلين وثناؤه عليهم وذكر جزائهم في الدنيا والآخرة.

- منها مدح المتقين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِيمُونَ ﴿٣﴾﴾ البقرة: 3

- ومدح المؤمنون في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ ءَأَوْلِيَاءُ بَعْضٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ ءَأَمْرًا مِّنْ ءَأَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ التوبة: 71.

- ومدح الله عباده المؤمنين، فبدأ بذكر الصلاة قبل أي عمل فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ المؤمنون: 2، فمدح خشوعها فيها، ثم أعاد ذكرها في آخر أوصافهم إعظاما لقدرها في القرية إليه، ولما أعد للقائمين بها المحافظين عليها من جزيل الثواب، ونعيم المآب فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ المؤمنون: 9.

- وفي سورة المعارج يقول تعالى عن الإنسان: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١٣﴾﴾ المعارج: 19 - 21، ثم لم يبريء أحدا من هذين الخلقين المذمومين من جميع الناس غير المصلين، فقال: ﴿إِلَّا

الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ المعارج: 22 - 23، ثم أعاد ذكرهم وجزاءهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ المعارج: 34.

وفي كل الآيات يبدأ بمدح الصلاة قبل سائر الأعمال، ويكرر الثناء، ويمدحهم بالمحافظة والمداومة كل ذلك تعظيما لشأنها.

الفرع السادس: من تعظيم قدر الصلاة الحديث عن المساجد والقبلة

ومما يبين اهتمام القرآن الكريم بشأن الصلاة، وتعظيمها، حديثه عن المساجد وتعظيمه لها، ولبنائها وعمارته بالصلاة، وتعظيم حرمتها، وقد ورد في القرآن الكريم ما يقرب من أربعين آية تتحدث عن المساجد بلفظها وبغير لفظها، وعن القبلة وأحكامها وما يتعلق بتحويلها عن بيت المقدس، وفي كل ما ينبىء على أن القرآن الكريم فخم شأن الصلاة، وجعل لها منزلة خاصة تتميز بها عن سائر العبادات، وإن دراسة هذه الآيات تحتاج إلى رسالة خاصة، غير أنني أذكر طرفا مختصرا منها:

- أمر الله بتطهير البيت: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ

السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ الحج: 26.

- دعا إلى الإخلاص في بناء المساجد: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ الجن: 18.

- وحذر من بناء المساجد التي لا تبنى لوجه الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَيَحْلِفُونَ إِنْ أُرْدْنَا إِلَّا الْحَسْبُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يُنْظَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٧٨﴾﴾ التوبة: 107 - 108.

- دعا القرآن الكريم إلى التعبد في المساجد: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢١﴾﴾ الأعراف: 29.

- ودعا القرآن الكريم لأخذ الزينة عند كل مسجد: ﴿يَبْنَیْ عَادَمَ حُدُودًا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ الأعراف: 31.

- وحث القرآن الكريم على عمارة المساجد، وجعله من علامات الإيمان بالله وباليوم الآخر: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ التوبة: 18.

الفرع السابع: من عظم شأن الصلاة أنها لا تسقط بحال من الأحوال

ميز القرآن الكريم الصلاة عن سائر العبادات بوجوبها على كل حال، وبعدم سقوطها فهي فريضة دائمة على الحر والعبد، والرجل والمرأة، والغني والفقير، والصحيح والمريض، والمقيم والمسافر، والأمن والخائف. ولم يجعل القرآن هذا لغير الصلاة، فالزكاة لا تجب على من لا يملك نصابها. ينظر: الصلاة في القرآن الكريم، ص: 30. والصيام يسقط على من لا يطيقه، ومن كان مريضاً أو مسافراً جاز له الفطر ثم القضاء، والحج كذلك يسقط عن من لم يستطع إليه سبيلاً، أما الصلاة فلم يسقطها القرآن عن أحد بل أوجبها على المؤمنين في أوقاتها، وأمر بالمحافظة عليها في جميع الأحوال، حال السفر، وحال الحرب والخوف، حتى ولو أديت قصراً، أو بصفة غير صفتها العادية، قال تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكٰفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّنْ مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ النساء: 101 - 103.

الفرع الثامن: من أهمية الصلاة أنها أول عمل صالح يعد من عزم الأمور: ﴿يَبْنَیْ أَعْرَابًا الصَّلَاةَ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧٧﴾﴾ لقمان: 18.

الفرع التاسع: من أهمية الصلاة في القرآن أنها من علامات الولاية بين المؤمنين وشرط للأخوة في الدين: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ المائدة: 55.

الفرع العاشر: من أهمية الصلاة في القرآن أنها تشترك فيها جميع المخلوقات لله رب العالمين

- ما جاء عن الملائكة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ الأعراف: 206.

- ما جاء عن سجود المخلوقات وصلاتها لله رب العالمين: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمُ الْغُدُورُ وَالْأَصَابِلُ﴾

﴿١٥﴾ الرعد: 15.

المطلب الثاني: الحكمة من الصلاة وفضائلها.

وفيه فرعين:

إن الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها هي عبادته المتضمنة لمعرفته، ومحبته، والإنابة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك متوقف على معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة بربه كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم، يقول عز شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ الذاريات: 56، وتظهر الحكمة من الصلاة عند تأملنا في الآيات الواردة في ذلك:

الفرع الأول: أن الصلاة فرضت لأجل ذكر الله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿١٤﴾ طه: 14، لأن ذكر الله من أجل المقاصد، وبه عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره وخصوصا الصلاة، لأنها تذكر العبد بخالقه إذ يستشعر أنه واقف بين يدي الله لمناجاته. ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص: 452.

الفرع الثاني: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ العنكبوت: 45.

المطلب الثالث: خصائص الصلاة

الفرع الأول: مفتاح شرائع الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ الأنبياء: 73.

الفرع الثاني: فرضها بدون واسطة:

1- فرض الله الصلاة على موسى مباشرة: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿١٤﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾

﴿١٤﴾ طه: 12 - 13.

2 - صرح عيسى ابن مريم عليه السلام بأن الله أوصاه بالصلاة: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿٣١﴾ مريم: 30 - 31.

3 - فرضت الصلاة بدون واسطة على الرسول ﷺ حينما أخرج به: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١﴾ الإسراء: 1.

الفرع الثالث: أن الصلاة سماها الله إيماناً: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ

إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٤٣﴾ البقرة: 143.

الفرع الرابع: الصلاة مقرونة بالتصديق:

1 - ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ ﴿٣١﴾ القيامة: 31.

2 - ﴿ وَهَذَا كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

﴿ ٩٢ ﴾ الأنعام: 92.

الفرع الخامس: اشترط الله للصلاة أكمل الأحوال:

1 - شرط الطهارة: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ ٦ ﴾ المائدة: 6.

2 - شرط الزينة واللباس وستر العورة: ﴿ يَبْنَىٰ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ﴿ ٣١ ﴾ الأعراف: 31.

3 - شرط استقبال القبلة: ﴿ قَدْ رَأَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ ١١٤ ﴾ البقرة: 144.

الفرع السادس: استعمل الله في الصلاة جميع أعضاء الإنسان وجميع جوارحه

ذلك أن الصلاة ليست حركات رياضية ونظاما رتبيا جامدا لا روح فيه ولا حياة، ولا نظاما عسكريا لا إرادة فيه ولا خيار، وإنما هو عمل يشترك فيه الجسم والعقل والقلب، ولكل منها نصيب غير منقوص، وكل فيها ممثل تمثيلا حكيما عادلا فللجسم: قيام وركوع وسجود وانتصاب وانحناء.

1 - أعمال الجسد: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ ٧٧ ﴾ الحج: 77.

2 - عن تعقل وشعور: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ النساء: 43.

3 - الخشوع: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ ١ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ﴿ ٢ ﴾ المؤمنون: 1 - 2.

الفرع السابع: الأمر بالاستعانة بها ومع الصبر: ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ ﴿ ٤٥ ﴾ البقرة: 45.

المطلب السادس: الأعمال الصالحة التي قرنت مع الأمر بالصلاة.

وفيه عشرة فروع:

الفرع الأول: الزكاة: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ﴿ ٤٣ ﴾ البقرة: 43.

الفرع الثاني: التمسك بالكتاب وتلاوته: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ﴿ ١٧٠ ﴾ الأعراف: 170.

الفرع الثالث: طاعة الله ورسوله: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ﴿ ٣٣ ﴾ الأحزاب: 33.

الفرع الرابع: خشية الله والاستجابة له والاعتصام به: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ

وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ رَهْمًا بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿ ١٨ ﴾ فاطر: 18.

الفرع الخامس: الإنبابة والتقوى: ﴿ مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣١) ﴿ الروم: 31.

الفرع السادس: فعل الخيرات: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴾ (٧٣) ﴿ الأنبياء: 73.

الفرع السابع: التمكين في الأرض: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَرَبُّهُ عَنِيبٌ الْأُمُورِ ﴾ (٤١) ﴿ الحج: 41.

الفرع الثامن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر: ﴿ يَبْنِي أَمِيرٌ الصَّلَاةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٧) ﴿ لقمان: 17.

الفرع التاسع: إقراض الله: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢٠) ﴿ المزمّل: 20.

الفرع العاشر: الالتزام بالشورى والإنفاق من رزق الله: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (٣٨) ﴿ الشورى: 38.

المطلب السابع: ثمرات الصلاة وآثارها على النفس والأخلاق

وفيه ثمانية فروع.

الفرع الأول: الصلاة للفلاح في الدنيا والآخرة:

1 - ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ (١٤) ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴾ (١٥) ﴿ الأعلى: 15.

2 - ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَسَجَدُوا وَعِبَدُوا رَبَّهُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٧٧) ﴿ الحج: 77.

الفرع الثاني: الصلاة تثمر الاستقامة على الصراط المستقيم: ولعل من الأسرار والحكم التي تؤكد أهمية الاستقامة وحاجة المؤمن إليها دائما جعل قراءة الفاتحة ركنا من أركان الصلاة في كل ركعة من ركعات الصلاة لما فيها من الدعاء العظيم: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١) ﴿ الفاتحة: 6، بالصلاة ينتهي المؤمن عن الفحشاء والمنكر، وإذا انتهى المؤمن عن الفحشاء

والمنكر فتحصل له الاستقامة على الدين: ﴿ أَتْلُ مَا أوحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِتَتَذَكَّرَ عَلَيْهَا وَعَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٤٥) ﴿ العنكبوت: 45.

الفرع الثالث: الصلاة تكفر الصغار من السيئات: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ آيَاتِ الْحُسْنَىٰ إِنَّ الْحُسْنَىٰ يُذْهِبُ الْسَيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكْرِينَ ﴾ (١١٤) ﴿ هود: 114.

الفرع الرابع: الصلاة تثمر سعة الرزق وزيادة الفضل في الدنيا والآخرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (٢٩) ﴿ فاطر: 29.

- وأن الله ضمن الرزق الواسع الطيب المقرون بالتوفيق والعاقبة الحسنة للمقيمي الصلاة والمحافظين عليها والأميرين بها أهلهم وذويهم: ﴿ وَأَمْرًا هَلَاكًا بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (١٣٢) ﴿ طه: 132.

الفرع الخامس: الصلاة من أكبر الأسباب الموجبة لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ البقرة: 277.

الفرع السادس: الصلاة علاج للهلع الذي جبلت عليه النفس: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جُرُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ

مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُضِلِّينَ ﴿٢٢﴾ المعارج: 19 - 22.

الفرع السابع: الصلاة طمأنينة للقلب وسكينة للنفس: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

﴿٢٨﴾ الرعد: 28.

المطلب الخامس: الآثار المترتبة على ترك الصلاة والجزاء على ذلك

جاء في القرآن الكريم حديث عن ترك الصلاة وجزائه، والآثار المترتبة عليه في عدة سور وآيات أخرى، بأساليب متنوعة وطرق متعددة.

الفرع الأول: الذي يتكبر عن السجود لله في الدنيا لا يستطيع السجود في الآخرة لله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ القلم: 42.

الفرع الثاني: الذين ليسوا من المصلين مجرمين يسلكون مسلك أصحاب سقر: أحد أسباب سلوك أصحاب سقر أنهم لم

يكونوا من المصلين: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٤﴾ قَالُوا لَوْ لَرْنَاكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ المدثر: 43.

الفرع الثالث: الذين يتهاونون في الصلاة ويصلونها رياء توعدهم الله بالويل: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ

سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ الماعون: 4 - 6.

الفرع الرابع: بيان أن أول خصال الكافر عدم الصلاة: ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿٣١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٣٢﴾ القيامة: 31 - 32.

الفرع الخامس: التنديد بالذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات بأنهم سيلقون جزاء غيهم: ﴿ خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا

الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ مريم: 59.

الفرع السادس: من صفات المنافقين التناقل في الصلاة: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا

كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٤﴾ النساء: 142.

الفرع السابع: الخسارة لمن يلهي عن الصلاة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ

ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ المنافقون: 9.